

الأثر الحضاري للغزو المغولي للمشرق الإسلامي (٦١٧ - ٨٠٣هـ/١٢٢٠ - ١٤٠٠م)

د. محمد قايد حسن الوجيه

أستاذ التاريخ المشارك بقسم التاريخ - كلية الآداب

والإدارة - جامعة بيشة - المملكة العربية السعودية،

كلية التربية - جامعة صنعاء - الجمهورية اليمنية.

الملخص

12

حاول البحث عرض الأثر الحضاري للغزو المغولي للمشرق الإسلامي بشقيه **السلبى** المتمثل بقيام المغول بتدمير الحضارة الإسلامية في المدّ الأول من الغزو سواءً على (المدن والعمران، أو السكان، أو القيم والأخلاق، أو على الصناع وأرباب الحرف، أو المكتبات والكتب والعلماء، أو التجارة والاقتصاد)، و**الإيجابى** المتمثل بتأثر المغول بحضارة المسلمين التي كانت بلا شك أعظم وأقدم من حضارتهم و هذا التأثير والتأثير كان له عوامل عدة منها: حضارة المغول البدائية، وتأثرها بحضارات عدة في طريقهم للمشرق كالحضارة الصينية والمسيحية ثم الإسلامية، ليصل البحث لعرض العوامل التي أدت لانتشار الإسلام بين المغول نتيجة احتكاكهم المباشر بالمسلمين سواء عن طريق الموظفين المسلمين أو الزوجات المسلمات أو تأثير سكان البلاد المفتوحة، ومن ثم ظهور العديد من العلوم والفنون في عهد المغول والتي أثرت وتأثرت بالحضارة الإسلامية سواء الفنون أو العمران أو الثقافة والأدب واللغة والترجمة والتي بينها البحث

مقدمة:

يعقب الغزوات الكبرى في التاريخ فترة من الزمن تنتقل فيها حضارة^(١) الغالب إلى حضارة المغلوب، ثم يحدث أن تتقابل الحضارتان وتؤثر إحداهما في الأخرى، فتظهر حضارة جديدة تكون عبارة عن مزيج من الحضارتين معاً، لكن المغول كانوا أمة حضارتها ضعيفة وبدائية، غير أنهم لما غزوا بلاد الصين اقتبسوا من حضارتها ما غير من طبيعتهم البدائية، وقبل وصولهم للعالم الإسلامي سمعوا عن حضارته العريقة.

ولما سيطر المغول على العالم الإسلامي أثرت فيهم حضارة المسلمين وثقافتهم، وانعكست تلك الثقافة والحضارة الإسلامية عليهم، فيذكر هورث^(٢) أن جنكيز خان كان قد علم عن طريق بعض التجار أنه فيما وراء الحدود الغربية لدولته توجد الوديان الخصبة التي لا يكسوها الجليد مطلقاً، كما عرف أن المسلمين يعيشون في مدن أعظم وأقدم من حضارته "قره قورم"^(٣)، فمن غير المعقول أن المغول كانوا سيكتفون بما سيطروا عليه من مناطق في آسيا الوسطى، فكانوا سيفغزو عاجلاً أم آجلاً الهضبة الإيرانية^(٤)، وشرق العالم الإسلامي.

وسيتناول البحث ستة عناصر وخاتمة مرتبة كما يلي:

أولاً: الأوضاع السياسية للعالم الإسلامي خلال مرحلة الغزو المغولي.

ثانياً: من هم المغول.

ثالثاً: ساحة الصراع.

رابعاً: الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي:

(على المدن والعمران - السكان - القيم والأخلاق - الصناعات وأرباب الحرف - المكتبات والكتب - العلماء - التجارة والاقتصاد).

خامساً: العوامل التي ساعدت على التأثير حضارياً في المغول.

سادساً: الآثار الحضارية الايجابية للغزو المغولي على الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي.

أولاً: الأوضاع السياسية للعالم الإسلامي خلال مرحلة الغزو المغولي:

١ - الحضارة: هي مجموعة من القيم المعنوية والانجازات المادية التي تشكل في مجموعها واقع أمة وصلت في مضمار التقدم والرفق وسيطرة الإنسان التابعة من إبداعه الخلاق إلى درجة عالية بالقياس إلى مستوى العصر الذي تعيش فيه هذه الأمة. انظر: (د. عماد الدين خليل، ودفايز الربيع: الوسيط في الحضارة الإسلامية، دار الحامد الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ٧٨).

٢ - Howorth, History of the Mongols, (London, 1876), Part I. p.99

٣ - وصف مدينة قره قورم حضارة المغول بمبعوث البابا أنسوت الرابع والذي يسمى جون دي بلانو كارپيني John De Plane Carpinei والذي وصل إلى قره قورم ووصفها مع البلاد التي مر بها في الشرق مما أثار شغف الأوربيين وحضهم للإستزادة من أخبار الشرق. انظر: Barker, E, The Crusades. (London, 1925), P.86. Sykes, Sir Percy, The Quest For Cathay, (London, 1936), PP.93-98.

٤ - فواد الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، ج ١، ١٩٨٠م، ص ١٠٦.

كان العالم الإسلامي عشية الغزو المغولي في العقد الثاني من القرن السابع الهجري مقسماً بين قوى سياسية رئيسية أهمها حسب تسلسل احتلال المغول لها:

- ١ - الدولة الخوارزمية في البلاد التي تمتد من العراق إلى حدود تركستان.^(١)
- ٢ - دولة سلاجقة الروم التي شملت كثيراً من أراضي أرمينيا وآسيا الصغرى، وقد هزمهم المغول ودانوا لسلطانهم منذ سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.^(٢)
- ٣ - الإسماعيلية الذين كان لهم قلاع وحصون في همذان وفارس وأصفهان، وبلاد الشام، وقد خرب جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه كثيراً من قلاعهم، وتولى هولاء القضاء على قلاعهم في إيران^(٣) سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، وفي الشام قضا عليهم الظاهر بيبرس.^(٤)
- ٤ - دولة الخلافة العباسية التي تقلص نفوذها حيث لم يعد تحت سلطان الخليفة في أحسن الأحوال سوى العراق وخوزستان وهمذان.^(٥)
- ٥ - الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر، حيث كانت مقسمة بين أبناء الأيوبيين.^(٦)

- ١ - ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، ١٩٦٦م، ج٢، ص١٣٦، وتركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك، وحدهم الصين والتبت والغز، وأول حدهم من بلاد المسلمين فاراب، ومدن هذا الإقليم ستة وعشرين مدينة مشهورة. انظر: (ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، دت، ج٢، ص٢٣).
- ٢ - رايس، تامارا تالبوت: السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفى الخوري وإبراهيم الدقوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م، ٤٢-٤٩، ٩٥.
- ٣ - هو هولاءكو بن طلو بن جنكيز خان، حكم مناطق العراق العجمي وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل وغيرها من المناطق عشر سنوات ثم تولى في ١٩ من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ، وملك بعده ابنه أبغا في هذه المناطق. انظر: (زين الدين عمر بن مظفر ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٢، ص٢١١).
- ٤ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م، ٢٠٠/٤، الظاهر بيبرس: ولد ببلاد القبحاق سنة ٦٢٥هـ، وأسر وبيع ثم حمل إلى القاهرة، وكان من المماليك البحرية، تسلم السلطنة بعد قتل سنة ٦٥٨هـ، وتصدى للتتار والفرنجة، وتوفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: (الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، ج١، ص٢٣٥).
- ٥ - ابن واصل: جمال الدين بن محمد بن محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين النشيبال، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٧٢م، ج٤، ص١٧٠، خوزستان: يضم أوله وإسكان ثانيه، بلاد من نواحي خوزستان ونواحي الأهواز، بين فارس والبصرة وواسط. انظر: (ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٤).
- ٦ - ابتداء الدولة الأيوبية عندما تولى شيركوه وصلاح الدين للوزارة في مصر للخليفة الفاطمي العاضد آخر الخلفاء الفاطميين والذي بوفاته سنة ٥٦٧هـ تولى صلاح الدين الأمور في مصر وقامت الدولة الأيوبية. (انظر: مجير الدين الحنبلي العلمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباته، مكتبة رنديس، عمان، ١٩٩٩م، ج١، ص٣١٢)، وقد استمرت هذه الدولة تؤدي دورها بعد صلاح الدين ما يقارب من ستين سنة، إلا أن أمراءها انعدم الوفاق بينهم في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، فكانوا في نزاع مستمر، فقتضى المغول على بلادهم سنة ٦٥٧هـ، وقامت بدلا عنهم دولة المماليك. انظر: (الصيد: المغول في التاريخ، ص٢٩٠، ٢٩١).

بذلك يتضح لنا تفكك هذه القوى الخمس المتواجدة بشكل رئيسي في العالم الإسلامي عشية الغزو المغولي للمشرق الإسلامي لعدم وجود أي تعاون أو تفاهم فيما بينها. وسيحاول البحث التركيز على ثلاث قوى رئيسية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت لتأثرها باجتياح المغول للعالم الإسلامي وهي:

- **الدولة الخوارزمية** التي بلغت أقصى اتساع لها في عهد خوارزم شاه علاء الدين محمد، حيث ملك من حد العراق إلى تركستان، وملك بلاد غزنة، وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان، وبعض فارس^(١)، وبلاد الخطائين^(٢). ولعل أول إشارة للعلاقات الخوارزمية المغولية تبين حسن العلاقة بين الطرفين^(٣)، فقد استعان المغول بخوارزم شاه في حربهم ضد الخطائين، ولما تم القضاء عليهم ساءت العلاقة بين الطرفين بسبب مطالب خوارزم شاه بنصيبه من الغنائم، فهده المغول بأنه سيلقى نفس مصير الخطائين^(٤)، واستمرت العلاقات هادئة بين الطرفين حتى ظهرت حادثة مدينة أترار^(٥)، التي قام واليها بقتل جماعة من التجار المغول الوافدين سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م^(٦)، حيث كانت كانت الشرارة التي فجرت العلاقة الحربية بين الطرفين^(٧)، فزحف المغول على إثرها على أملاك خوارزم شاه وظلوا يتبعونه من مكان إلى آخر إلى أن مات شريداً^(٨).

- ١ - سجستان: بكسر أوله وتانيه، وسين أخرى مهملة وتاء مشاء من فوق وآخره نون، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة، وأرضها سبخة ورمالها حارة بها نخيل. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٠)، كerman: بالفتح ثم السكون وآخره نون، وربما كسرت، والفتح أشهر، وهي ولاية مشهورة بين فارس وكرمان وسجستان وخراسان. (ياقوت: معجم، ج ٤، ص ٤٥٤)، طبرستان: بفتح أوله وتانيه وكسر الراء، وتعرف بمازندران، وهي مجاورة لجيلان، وديلمان، وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم. (ياقوت: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣)، جرجان: بالضم وآخره نون، وهي مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان. (ياقوت: معجم، ج ٢، ص ١١٩)، خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان. (ياقوت: معجم، ج ٢، ص ٣٥٠).
- ٢ - ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٢٧١، والخطائين: هم قبائل نزحت من موطنها الأصلي في شمال الصين، واستقروا غرب إقليم تركستان، حيث كونوا دولة في ولاية كاشغر وختن، عُرفت باسم "القرخطائين"، وقد استطاع ملوك هذه الدولة الذين كان يلقب كل واحد منهم بلقب "كورخان" (أي ملك الملوك) أن يمدوا حدود دولتهم من صحراء جوبي إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا. انظر: (الصيد: المغول في التاريخ، ج ١، ص ٦٥).
- ٣ - الصيد: المرجع السابق، ص ٩٧.
- ٤ - ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٢٧٠.
- ٥ - أترار: ويقال لها أطرار، بالضم ورائيتين مهملتين، اسم مدينة حصينة وولاية واسعة في أول حدود الترك، بما وراء النهر، على نهر سيحون قرب قرب فاراب، وهي آخر ولاية خوارزم شاه. انظر: (ياقوت: معجم، ج ١، ص ٢١٨).
- ٦ - ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٣٦١- ٣٦٢.
- ٧ - النسوي، محمد بن أحمد: سيرة السلطان جلال الدين مكبرتي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٨٥.
- ٨ - النسوي: المصدر السابق، ص ٨٥، سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاعلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٩٥٢م، ج ٨، ق ٢، ص ٢٩٨.

كانت الهزيمة المصير الذي آلت إليه الدولة الخوارزمية منطقياً مع طبيعة الأحداث التي سبقتها، فقد عمد خوارزم شاه إلى إخلاء البلاد من الملوك المنافسين له^(١)، وساعد المغول في إزالة دولة الخطائين التي كانت تشكل سداً بين بلاده وبلاد المغول^(٢)، كما كانت علاقته سيئة مع الخلافة العباسية، والسبب في ذلك طلبه بجعل اسمه بعد اسم الخليفة في خطبة الجمعة، ولما لم يستجيب الخليفة العباسي قرّر التوجه نحو بغداد سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م لولا الظروف الجوية السيئة التي حالت دون ذلك، حيث سقط ثلج كثيف أهلك الدواب وفرق الجنود^(٣).

ولمّا تولى جلال الدين بن خوارزم شاه بعد أبيه لم يحاول جمع القوى الإسلامية، وتوحيد صفها، فعندما رجع إلى الهند عقب زحف المغول على أملاك والده^(٤)، شن حرباً على الدولة الإسلامية، حيث أغار على أملاك الدولة العباسية في همذان وخوزستان، وأطراف العراق^(٥)، وأغار على أملاك الأيوبيين في خلاط^(٦)، كما أغار على بلاد سلاجقة الروم^(٧)، وقد أدى ذلك إلى تحالف الأيوبيين وسلاجقة الروم ضده، فهزموه هزيمة منكرة^(٨)، ولم يصغ أحد إلى صيحات النجدة التي أطلقها بعد هزيمته أمام المغول^(٩)، الذين خرجوا إليه وأزالوا ملكه وأمره^(١٠).

تتبعه بعض ملوك المسلمين لخطورة زوال الدولة الخوارزمية على يد المغول على المشرق الإسلامي أجمع، فقد أحس بذلك الملك الأشرف^(١١)، الذي قال لمن هنأه بهزيمة جلال الدين: "تهنئوني به وتفرحون، سوف ترون غبّة، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً في دخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان هذا الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج"^(١٢).

- ١ - سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٨، ق٢، ص٦١٠.
- ٢ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٢٧٠، الصياد: المغول في التاريخ، ص٦٧.
- ٣ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٣١٧، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٢٩٨.
- ٤ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٤٢٥، النسوي: سيرة السلطان، ص١٧٤.
- ٥ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٤٢٦.
- ٦ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٤٦٠، ٤٨٧، النسوي: سيرة السلطان، ص٢٩٩، ابن العبري، أبو الفرج المظني: تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢١٥، وخالط هي: بكسر أوله وآخره طاء مهملة، بلدة عامرة مشهورة، ذات خيرات واسعة والثمار البانعة، وهي من فتوح عاض بن غنم. (ياقوت: معجم، ج٢، ص٣٨٠).
- ٧ - النسوي: سيرة السلطان، ص٣٢٩.
- ٨ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٨٩، النسوي: سيرة السلطان، ص٣٢٩.
- ٩ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٦٦.
- ١٠ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٩٧.
- ١١ - هو مظفر الدين أبو الفتح موسى بن العادل، ولد سنة ٥٧٦هـ، بالقاهرة، ملك حران وخالط مدة ثم دمشق، توفي سنة ٦٣٥هـ. انظر: (ابن خلدون: العبر، ج٥، ص١٣٩).
- ١٢ - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٧٠، ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة، مصر، دت، ج٦، ص٢٧٧.

- الخلافة العباسية التي انفصلت عنها الكثير من الدول التي كانت في أطرافها، ولم تعد تعطىها سوى الولاء الاسمي^(١)، بل أصبحت هذه الدول يغيرها السيطرة على حاضرة الخلافة بغداد، مثل البويهيين، والسلاجقة، والخورزميين^(٢)، وبذلك ضعف أمر الخليفة والخلافة، فلم تعد لهما أي سلطة فعلية، وتحول القرار للسلطين المتحكمين، أو الوزراء المتنفذين، فصار الناس يتساءلون ما أبقى الخليفة لنفسه^(٣) وقد عاصر الغزو المغولي أربعة من الخلفاء العباسيين في بغداد هم: الناصر والظاهر والمستنصر والمستعصم، أما الناصر فكان أطولهم عهداً، حيث بلغت خلافته سبعة وأربعين عاماً إلا قليلاً^(٤)، إلا أنه لم يتخذ أي إجراءات جادة تكفل مواجهة التتار، ويدل على ذلك ما حدث سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م عندما هجم المغول على أطراف العراق، فقد كتب الخليفة إلى كل من أميري الموصل وإربل، والملك الأشرف، يطلب الاجتماع به عند دقوق^(٥)، فلبى نداءه نداءه أميراً الموصل وإربل، وتخلف الملك الأشرف لانشغاله بمحاربة الفرنج مع أخيه المعظم، فلما اجتمعت عساكر إربل والموصل طال انتظارها للخليفة الذي اكتفى بإرسال أحد مماليكه ومعه ثمان مائة فارس فقط، فوجد الأميران أن ما معهما لا يكفي لقتال المغول، ولولا أنهم رجعوا إلى بلادهم دون قتال لحدث ما لا يحمد عقباه، وقد قال الأمير مظفر الدين كوكبري: "إن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استتقت ما أخذ من البلاد"^(٦)، لكن ذلك يبين لنا تحاذل الخليفة وتهاونه في إعداد العدة لمواجهة المغول.

لما تولى الخليفة الناصر سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م^(٧) تولى بعده ابنه الظاهر، غير أنه لم يدم في الخلافة سوى قريباً من سنة واحدة^(٨)، وقد اتصف بحسن السيرة حتى قال عنه ابن الأثير: "إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله"^(٩)، وقد آل الأمر من بعده لابنه المستنصر بالله الذي تولى الخلافة خلال السنوات ٦٢٣ - ٦٤٠هـ/١٢٢٦ - ١٢٤٢م، وفي عهده قضى المغول على الدولة الخوارزمية^(١٠)، وتوجهوا لمهاجمة أملاك الخلافة العباسية أكثر من

١ - ابن كثير: الكامل، ج١٣، ص٢٠٥، الصياد: المغول في التاريخ، ص٦٩..

٢ - ابن واصل: مفرج الكرب، ج٤، ص٣٥.

٣ - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٢٥.

٤ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٣٩، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر، دت، ج١٣، ص١٠٦، وكانت خلافته من سنة ٥٧٥هـ حتى سنة ٦٢٢هـ. انظر: (جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص٤٢٨، ٤٤١).

٥ - دقوقاً: بفتح أوله وضم ثانيه، مدينة بين إربل وبغداد. (ياقوت الحموي: معجم، ج٢، ص٥٥٩).

٦ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٧٩، ابن واصل: مفرج الكرب، ج٤، ص٥٠.

٧ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٤٣٨.

٨ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٤٥٦.

٩ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٤٣٨.

١٠ - ابن الأثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٤٩٧.

مرة^(١)، عندها قام الخليفة بإرسال الرسائل إلى الأشراف في مصر والعربان وغيرهم، وأخرج الأموال واستعد أهل البلاد لمواجهة المغول^(٢)، خاصة بعد أن استولوا على أرمينيا^(٣).
 لما توفي الخليفة المستنصر بالله تولى الخلافة بعده المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، والذي امتدت خلافته من سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م حتى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقد وصف هذا الخليفة بأنه كان ضعيف الرأي، ألقى مقاليد الأمور بيد كبراء دولته، والذين أساءوا ولم يحسنوا فيما أشاروا به ودبروه^(٤)، وقد كانت الوزارة في عهده للوزير ابن العلقمي^(٥)، وقد أشار على الخليفة بتسريح قسم كبير من جيشه، وقطع المال عن الجند، مما اضطرهم إلى الرحيل عن العراق^(٦)، وأصبح عدد أفراد جيش العراق أقل من عشرين ألفاً بعد أن كان يبلغ مائة ألف فارس^(٧).
 وقد بدأت المحاولات المحمومة من قبل المغول للسيطرة على العراق وعاصمته بغداد من وقت مبكر، ففي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م احتل المغول مدينة مراغة^(٨)، في أذربيجان، ثم تحولوا عنها إلى إربل، فخاف الخليفة العباسي أن يعدلوا عنها ويطرقوا العراق، فكتب لصاحب إربل وصاحب الموصل، فاجتمعوا بعساكرهما إلا أنه لم يحدث قتال لانسحاب المغول وعودتهم إلى بلادهم دون قتال - كما مر سابقاً -.
 وفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م وصل التتار إلى ظاهر بغداد، وخرجت عساكرها للقائهم، وحدثت بين الفريقين مناوشات وتراشق بالسهام، وثبت جيش بغداد أمامهم، فانسحبوا تحت جناح الظلام من غير أن يحدث صدام بين الطرفين^(٩).

- ١ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٥، ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق البغدادي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المكتبة العربية، بغداد، ١٣٥١هـ، ص ٩٨، ١٠٩.
- ٢ - المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٧١م، ج ١، ق ١، ص ٢٤٢.
- ٣ - أرمينيا: هي بين بلاد الروم وبلاد الروم، وغالب أهلها أرمن وفيها مسلمون وهم أعيان أهلها. (ياقوت: معجم، ج ١، ص ١٥٠).
- ٤ - ابن العبري: مختصر الدول، ص ٢٧٠، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد: المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الحسينية، الطبعة الأولى، دت، ج ٣، ص ١٧١.
- ٥ - هو: محمد بن أحمد بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس، عين بمنصب الوزارة من سنة ٦٤٢هـ بعد وفاة الوزير ابن الناقد، وظل يشغل هذا المنصب حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقد وجه إليه كثير من المؤرخين المسلمين تهمة الخيانة للخلافة والخليفة العباسي والتعاون والتآمر مع المغول، انظر عنه: (جعفر حسين خصبك: العراق في عهد المغول الأيلخانيين، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م، ص ٢٦، ٢٧).
- ٦ - ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٠ - ٣٢١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٤٨.
- ٧ - أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ١٩٤.
- ٨ - مراغة: بالفتح والغين المعجمة، من أشهر مدن أذربيجان، قرب تبريز. (ياقوت: معجم، ج ٥، ص ٩٣).
- ٩ - ابن أبي الحديد، أبو حامد عبد الحميد: شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ج ٨، ص ٢٤٠ - ٢٤١، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ١٩٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٨.

حاول الخليفة المستعصم تدارك الأمر، لكن بعد فوات الأوان، فعندما استيقن قصد المغول بلاده أرسل إلى الأيوبيين مستنجداً، وطلب أن يكون مقدم عساكر النجدة الملك الناصر داود بن المعظم^(١)، إلا أن بغداد سقطت قبل تحرك العساكر الشامية^(٢)، وبذلك فقد ظل الخلفاء ينتظرون وصول الخطر إليهم إلى أن اجتاحتهم^(٣)، ووصلت المهانة وضعف الهمة بالخلفاء لدرجة أن المستعصم رد على من حذره من اقتراب المغول من عاصمته بقوله: "أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها عليّ إذا نزلتُ لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليّ وأنا بها، وهي بيتي ودار مقامي"^(٤).

والغريب أن الخليفة كان يرد على مراسلات هولوكو باستعلاء وتحد وتجاهل للواقع الذي يعيشه، حيث يهدد هولوكو بأن باستطاعته أن يثير ضده مسلمي الأرض، وأنه قادر على حسم الأمور وإعادتها إلى نصابها، فيقول: "ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق والغرب ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشبان ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط، وجنود لي، إني حين أشير يُجمع الشتات، سأبدأ بحسم الأمور في إيران، ثم أتوجه إلى بلاد توران^(٥)، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعاً مملوءاً بالقلق والاضطراب، غير أنني لا أريد الحقد والخصام، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم"^(٦).

وقد وقع الخليفة ضحية وهم، ويتمثل ذلك باعتقاده أن الله عز وجل سيتكفل بحماية الخلافة العباسية من الأخطار^(٧)، مهما كانت، إذ يقول لهولوكو محذراً ومهدداً: "لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك حتى هذا العهد قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى

١ - هو الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل. انظر: (عبد القادر محمد النعمي دمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٤٤٦).

٢ - اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٦١م، ج١/١٧٣.

٣ - ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٧-٢٩.

٤ - الهمداني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت، وفؤاد الصياد، دار إحياء الكتب العربية، دت، م٢، ق١، ص٢٦٩.

٥ - توران: جميع بلاد ما وراء النهر تسمى بذلك، كما أن توران قرية على باب حران. (ياقوت: معجم، ج٢، ص٥٧).

٦ - الهمداني: جامع التواريخ، م٢، ق١، ص٢٦٩، محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م، ص٣٤٧.

٧ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣١٨.

يوم القيامة^(١)، "فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر".^(٢)

- **دولة بني أيوب:** أما بالنسبة لمصر والشام فقد حكمهما بني أيوب، الذين تقاسموهما فيما بينهم، بحيث يصح أن يقال: إنه لم تكن هناك دولة أيوبية واحدة، بل دول متعددة، وكانت هذه الدول تواجه عدة أخطار أهمها:

الأول: الخطر الصليبي الذي كان ما يزال باقياً في مدن ساحل الشام، وقد تجددت قوة الصليبيين مع بداية القرن السابع الهجري، وتجدد نشاطهم العسكري، فحاولوا التوغل في البر الشامى^(٣)، كما حاولوا مرة أخرى إيجاد قدم لهم في مصر، فشنوا الهجوم على دمياط أكثر من مرة خلال هذا القرن.^(٤)

الثاني: الخلافات الداخلية بين ملوك الأيوبيين، وقد كانت شديدة بينهم، بحيث استعصت على الخليفة العباسي الذي أرسل أكثر من رسول ليصلح بينهم^(٥)، دون فائدة، حتى أنهم لم يجتمعوا ضد الخطر الصليبي الذي كان يهددهم باستمرار، بل أن بعضهم بدأ يرأسل الخوارزميين^(٦)، يستعين بهم ضد الفريق الآخر الذي لجأ بدوره إلى الصليبيين حيث راسلوهم لنفس الغرض^(٧)، وكان السبب الرئيسي في الصراع فيما بينهم طمع كل فريق فيما عند الآخر، ومحاولته الاستئثار به^(٨)، حتى قال ابن كثير عن أحداث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م: "استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب متفرقون مختلفون قد صاروا شيعاً وأحزاباً".^(٩)

وهكذا فإن بلاد الإسلام التي شهدت أحداث الغزو المغولي كانت مقسمة بين هذه القوى المتعددة، ودخلت كل قوة منها في نزاع فيما بينها، مثل الأيوبيين والخلافة العباسية، وهذا الوضع لم يكن يبشر بخير، بل يثير المخاوف في نفوس الذين أبصروا عواقب الأمور، وقد صور ابن الأثير هذه الحالة للمسلمين، وصراعهم فيما بينهم بقوله: "فالسيف بيننا مسلول، والفتنة قائمة على ساق.. فإن لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله أن يبسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم".^(١٠)

١ - الهمداني: جامع التواريخ، م٢، ق١، ص٢٧٥، محمد ماهر حمادة: وثائق، ص٣٤٨.

٢ - محمد ماهر حمادة: وثائق، ص٣٤٩.

٣ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٩٤، ٢٧٣، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧، ٦٧، ٨٧.

٤ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص٣٥٧، ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، ص٦٣، ٨٢.

٥ - اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٣٣٣، أبو الفداء: مختصر، ج٣، ص١٢٧، ١٦٤.

٦ - ابن واصل: مفرج الكرب، ج٤، ص١٧٩.

٧ - أبو الفداء: مختصر، ج٣، ص٢٨، ١٧٢.

٨ - مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٩٩.

٩ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٣، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٥٧، ٧٢٥، بن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص١١٤.

١٠ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٦١.

ثانياً: من هم المغول:

المغول قبائل بدوية تشبه الترك، كانوا يسكنون الهضبة الآسيوية من أطراف الصين في وسط آسيا، في وادي يحده من الشرق الخطا (الصينيين)، ومن الغرب الأتراك الغوريين، ومن الشمال أرض تدعى سلفجاي، ومن الجنوب الهند^(١)، وتتسم هذه المنطقة بعدة صفات منها: أنها منطقة صحراوية قارية، تهب عليها رياح شديدة، قد تتحول أحياناً إلى أعاصير عاتية^(٢)، لذلك فقد كانت هذه القبائل تعيش حياة بدوية قاسية أثرت في شخصيتهم الوحشية التي لم تكن تمت إلى الحضارة بصلة، تعيش في نزاعات قبلية متعددة فيما بينها على منابت العشب والكلأ^(٣)، ومن أجل السيطرة عليهما تميزوا بالسرعة الهائلة على ظهور الخيل، حيث يبدوا تحركهم كما لو كان زحفاً حريباً سريعاً^(٤)، لهذا أجادوا الإغارة على المناطق الخصبة المجاورة، فكان ظهورهم كغزاة للسهول^(٥)، مما أكسبهم قدرة عالية في القتال، وصبر وطاعة عمياء لقوادهم، نتيجة لصراعهم الدائم مع الطبيعة، ومع جيرانهم، كما استخدموا الرعب والإبادة لمخالفهم، معتبرين أن إبادة السكان أضمن لهم حتى لا يثوروا عليهم^(٦).

ثالثاً: ساحة الصراع:

كان الغزو المغولي من أعنف ما مر في تاريخ البشرية من الغزوات، وأشد ما عرف المسلمون من النكبات، فقد أتى على مراكز العلم والحضارة في مشرق العالم الإسلامي، ومضى يجرف في طريقه مظاهر العمران، حتى وصل إلى العراق، فأزال الخلافة العباسية، وتابع سيره إلى ديار الشام، فخرّب فيها ما استطاع، إلا أن هزيمته في عين جالوت لم تجعل له فيها قرار، ولكن الغازي المغولي لم يبأس من امتلاك الشام، فقصدها مرة بعد أخرى، إلا أنه لم يستوطن فيها، وفي الجانب الآخر فقد كان لتأثير الحضارة الإسلامية دور فاعل في تغيير المغول وتحولهم من الوثنية إلى الإسلام، فتطبعوا بطابع الحضارة الإسلامية، وتأثروا بها، وأدخلوا عليها ما كانوا قد حملوه معهم من حضارة الصين.

يتصور كثير من الناس أن الغزو المغولي بدأ بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وانتهى بانتصار المسلمين في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، غير أن هذا الغزو بدأ قبل سقوط بغداد بأربعة عقود، وبقي بعده يأخذ طابع المد

١ - ابن العربي: تاريخ الزمن، بيروت، ١٩٩١م، ص ٢٣٥، ٢٣٩.

٢ - برتولد شويلر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص ١٩.

٣ - الهمداني: جامع التواريخ، ٢م، ج ١، ص ١٦٥، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، دار الفكر، ١٩٤٩م، ص ١٠٨.

٤ - إبراهيم العدوي: تاريخ العالم الإسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٢٤، أرمنيوس فايري: تاريخ بخارى، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٧م، ص ١٦١.

٥ - كليفوردا، أ. بوزورت: الأسرار الحاكمة في التاريخ الإسلامي، عين للدراسات، ١٩٩٥م، ص ١٩٩.

٦ - استانلي لينبول: طبقات سلاطين الإسلام، بيروت، ١٩٨٥م، ١٨٧.

والجزر حتى بداية القرن التاسع الهجري، وقد اتسم الغزو المغولي بالطابع الاستيطاني في العراق وفارس وما ورائهما من ديار المسلمين، واستطاع أن يقيم مملكتين، الأولى: في فارس وكان ملوكها من ذرية هولانكو، والثانية: في بلاد القفجاق.

لم يكن للصراع بين المسلمين والمغول ساحة محددة المعالم، غير أن تحديد ساحة الصراع يمكن التوصل إليها بالنظر لمراحل هذا الغزو، المرحلة الأولى: منذ انطلاق هذا الغزو سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حيث شمل الصراع المناطق الواقعة من حدود العراق إلى تركستان، التي كانت تحت حكم الدولة الخوارزمية^(١)، ووصلت هجماتهم حتى إربل^(٢)، ولم يبق أمامهم سوى بقية العراق والجزيرة^(٣)، ومصر^(٤)، إلا أن المغول لم يسيطروا على هذه المناطق بالكامل، بل بقي بعض منها تحت سلطة السلطان غياث الدين بن علاء الدين خوارزم شاه^(٥).

ثم جاءت المرحلة الثانية من سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، في بلاد العراق (الخلافة العباسية)، والشام، فقد بدأ المغول خلال هذه المرحلة السيطرة على الخلافة العباسية في بغداد عن طريق إرسال العديد من الحملات والكتائب إلى الطرق المؤدية إلى بغداد، وقد كانت هذه الكتائب تقوم بمهمة استطلاعية لاختبار قوة الخلافة العباسية^(٦)، ولم تتوقف هذه المرحلة حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ثم بدأ المغول بعد ذلك يعملون على نقل الصراع إلى ساحة جديدة، فأخذوا يعدون العدة للاستيلاء على الشام، وقد توجه هولانكو، بنفسه إلى الشام، وسيطر عليه، واستمرت هذه المرحلة حتى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م^(٧).

أما المرحلة الثالثة: تبدأ من ٦٥٩هـ حتى ٧١٧هـ/١٢٢٠م، ودارت أحداث هذه المرحلة في الشام (حمص - حلب - سلمية - دمشق - الرحبة).

- ١ - الدولة الخوارزمية: هذه الدولة أصلها من مماليك الدولة السلجوقية، وقد وقفت رداً من الزمن أمام الهجمات المغولية، وانقرضت بقتل السلطان جلال الدين، وكانت مدة قيامها مائة وثمان وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وحكم فيها سبعة حكام. انظر: (شهاب الدين أحمد النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ج٧، ص١٣٧، ٢٠٥).
- ٢ - إربل: بالكسر ثم السكون وباء موحدة مكسورة ولام، بوزن إثم، والربل ضرب من الشجر، وتعد من أعمال الموصل. (ياقوت: معجم، ج١، ص١٣٧، ١٣٨).
- ٣ - الجزيرة: هي الجزيرة الفراتية، وهي نسبة إلى الجزيرة الواقعة بين بلاد دجلة والفرات، وإنما قيل لها جزيرة لهذا، وفيها عدة بلاد منها الموصل وحران والرقبة وغيرها. (محمد بن خليفة التميمي: مقالة التعطيل والجمع بن درهم، نشر أعضاء السلف، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٤١).
- ٤ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٥٩ - ٣٦٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٦ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ٢٣٣ - ٢٣٤.
- ٥ - غياث الدين بن علاء الدين خوارزم شاه بن أرسلان بن أطر ابن محمد بن يوستكين. انظر: (عبد الحي أحمد بن محمد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ، ج٤، ص٣٢٤).
- ٦ - ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤، ٩٩، ١٠٩، ١١٠، ١٩٩، ٢٠٠، أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٤.
- ٧ - انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٩ - ٤٣١، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٠ - ٢٢١.

أما المرحلة الرابعة: فاستمر فيها الهدوء من سنة ٧١٧هـ/١٢٢٠م، إلى أن ظهر تيمورلنك^(١)، الذي احتل بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م.

قام بعض ملوك المغول خلال هذه المراحل بطلب الهدنة والصلح مع المسلمين، كما اعتنق بعض ملوكهم الإسلام، وحسن إسلامهم، وكفوا الأذى عن المسلمين، وامتنعوا عن مهاجمة ديار الشام.^(٢)

رابعاً: الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي:

(على المدن والعمران - السكان - القيم والأخلاق - الصناعات وأرباب الحرف - المكتبات والكتب - العلماء - التجارة والاقتصاد)

أ - الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على المدن والعمران:

اجتاح المغول في زحفهم الذي بدأ سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م كثيراً من المدن الإسلامية الكبرى في شرق العالم الإسلامي، وأعملوا فيها أسباب التخريب والتدمير، وكان لما فعلوه فيها صدى عميق من الحزن في نفوس المسلمين، وقد عبر عن ذلك ابن الأثير في حديثه عن الغزو المغولي، فقد بين أنه أعرض عن الكتابة وتسجيل الأحداث المتعلقة بالغزو عدة سنين لأن في ذلك التسجيل نعيًا للإسلام والمسلمين، وتمنى لو لم تلده أمه، أو لو مات قبل ذلك الحدث الذي لم تعرف البشرية له مثيلاً^(٣)، وقد وصف البعض أثر هذا الغزو على المدن الإسلامية فقال: "جاءوا وخرّبوا، وحرّقوا وقتلوا، وسلبوا وذهبوا"^(٤).

قام التتار خلال غزوهم هذا بتدمير الشجر والحجر والبشر في المناطق التي احتلوها من العالم الإسلامي^(٥)، وقد دمروا المدن واحدة تلو الأخرى، فلما دخلوا إلى بخارى أمروا أهلها "بالخروج من البلد، فخرجوا مجردين من أموالهم، ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه، ودخل الكفار البلد فنهّبوه، وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاط -

١ - تيمورلنك: هو أحد أحفاد جنكيز خان، إلا أنه لم يكن ينحدر من سلالة بشكل مباشر، لذلك لم يكن له أي نصيب من الوصول إلى سدة الحكم، إلا أنه استطاع من خلال قدراته الشخصية وحنكته القوية أن يبسط نفوذه على المغول، وبعدها استطاع أن يتغلب على كل الملوك والأمراء المعادين له، واستطاع إنشاء الإمبراطورية المغولية في كل آسيا إلى حدود أوروبا وأفريقيا. انظر: (ساهر رافع: تيمورلنك، دار مشارق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ٢٣ - ٢٤).

٢ - المقرئزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٥٣ - ٥٧٤، ج٢، ق١، ص ٢٤٥.

٣ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص ٣٥٨.

٤ - براون، ادوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٢١.

٥ - عن الآثار التدميرية التي خلفها المغول في بلاد المسلمين انظر الرسالة التي وجهها ياقوت إلى القفطي شرح بها لأثار التي شاهدها والتي نتجت نتجت عن الغزو المغولي في: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، طبعة ١٩٩٠م، ج٦، ص ١٢٩-١٣٧.

جنكيز خان - بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء، من الرجال والنساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس...^(١) وأما سمرقند فإن المغول لما دخلوها ارتكبوا "من القتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع، وتركوا باقي البلد على حاله"^(٢) واستخدم المغول نفس أساليبهم في كل المدن التي احتلوها سواء سلّم أهلها سلماً أو دخلها المغول حرباً، فضي سمرقند لما دخلها المغول سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، قتلوا كل سكانها، ومن فر إلى المسجد الجامع لحقوا بهم فقتلوهم وأحرقوا الجامع^(٣)، وفي صفر من نفس العام استولى المغول على مدينة جند ونهبوها^(٤)، أما مدينة باميان فقد أوغل المغول فيها بالقتل والتدمير، فقررروا بضرورة عدم الإبقاء على شيء، بل لا بد من القضاء حتى على الأسرى، نتيجة لمقتل حفيد جنكيز خان (تيموجين ابن جفتاي)^(٥) وكانت الكارثة الكبرى على المسلمين في سقوط بغداد عاصمة الخلافة، فقد استباحوها، ونهبوا كل ما فيها، ثم أُحرق معظم بغداد، وجامع الخليفة وما يجاوره، واستولى الخراب على البلد^(٦)، وقد وصف الشعراء ما حل ببغداد من نكبة على يد المغول، ورغم أن ما حل بها قد يكون مشابهاً لمدن كثيرة في بلاد المسلمين، إلا أن ما ميز الحزن عليها أنها عاصمة الخلافة الإسلامية، وفيها خليفة المسلمين، لذلك كثر ثناء الشعراء لها ولأهلها^(٧)، ومن ذلك قول أحد الشعراء:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفتدوا فما بذاك الحمى والدار ديّار.^(٨)

ويقول آخر:

يا نار قلبي من نار لحرب وغي شُبّت عليه ووا في الربيع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها وقام بالأمر من يحويه زنار.^(٩)

١ - ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص ٣٦٦- ٣٦٧.

٢ - ابن لأثير: المصدر السابق، ج١٢، ص ٣٦٨.

٣ - السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٢٤.

٤ - الصبياد: المغول في التاريخ، ص ١١٤، الباز العريني: المصدر السابق، ص ١٢٤.

٥ - الباز العريني: المصدر السابق، ص ١٣٣، ١٣٤.

٦ - ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٣٠.

٧ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٥٢.

٨ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٥١- ٥٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص ٢٧١.

٩ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص ٥٢.

ومن المدن التي تعرضت للتخريب والهدم من المغول مدينة حلب التي دخلتها جيوشهم سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ومع أنهم فتحوها بالأمان، إلا أنهم "غدروا بأهلها، وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة..."^(١).

ويذكر ابن الوردي بعض مما ارتكبه المغول في حلب فيقول: "حلبت العيون ماءها على حلب، وسكبت الجفون دماءها من الصبب، والتف عليها الختل والاختال، واحتف بها القتل والوبال.. وتخريب الدور والقصور... ورفعت الصليبان على المساجد، ووضعت الأديان والمعابد حتى بكى على الوجود الجلمد"^(٢).

وفي نفس العام -٦٥٨هـ/١٢٦٠م - تعرضت دمشق لكثير من الخراب والتدمير وذلك بعد استيلائهم على حلب، فأخذوا المدينة من غير ممانعة ولا مدافعة، بل تلقاهم كبارها بالترحيب، وقد كتب هولاء كواًماناً لأهل البلد، فقرأئ بالميدان الأخضر، ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل بأهل حلب، هذا والقلعة ممتعة مستورة، وفي أعاليها المنجنيق منصوبة، والحال شديدة"^(٣)، وسلمت القلعة، فخرّبوها وهدموا بروجها، "وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة"^(٤).

كما تعرضت دمشق في سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م للبلاء والتدمير مرة أخرى على يد المغول، وذلك بعد أن انتصروا على المسلمين في وادي الخزندار، وامتعت عليهم قلعتها، وجرت في دمشق مصادرات، وجمعت الأموال من أهلها، وارتفعت الأسعار، وعم الغلاء، واحترق فيها كثير من المساجد والمدارس، وعم النهب.^(٥)

وفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م هاجم المغول حلب مرة أخرى بقيادة تيمورلنك، وحاصروها واشتد الحصار حيث جرت "حروب كثيرة ومناوشات بالنشاب والنفوط والمكاحل، وركب أهل حلب أسوار المدينة، وقاتلوا أشد قتال"^(٦)، ولما انهزم جند الشام بقيادة المماليك لجأ كثير من أهل حلب إلى القلعة، واقتحم عساكر تيمورلنك المدينة، واستخدموا كل وسائل العنف والتخريب، "وأشعلوا فيها النار، وأخذوا في الأسر والنهب والقتل، فهرب سائر نساء البلد والأطفال إلى جامع حلب، وبقيت المساجد، فمال أصحاب تيمور عليهم، وربطوهم بالحبال أسرى، ثم وضعوا السيف في الأطفال، فقتلوهم بأسرهم، وشرعوا في تلك الأفعال القبيحة على عادتهم... هذا والقلعة في أشد ما

١ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٨، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص٧٦.

٢ - ابن الوردي، سراج الدين عمر بن مظفر: تنمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدرائي، دار المعرفة، ١٩٧٠م، ج٢، ص٣٠٨-٣٠٩.

٣ - ابن كثير: البداية، ج١٣، ص٢١٩.

٤ - أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص٢٠٣.

٥ - ابن كثير: البداية، ج١٤، ص٨-١٠.

٦ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٢٢.

يكون من الحصار والقتال، وقد نهبها عسكر تيمور من عدة أماكن، وردم خندقها، ولم يبق إلا أن تؤخذ^(١)، ولما سقطت بيد عسكر تيمور أخذت النساء أسرى، وأخذت الجواهر والأموال غنيمة لتيمورلنك وجنده، "ففرقها على أمرائه والمقربين إليه، واستمر النهب والسيبي والقتل بحلب في كل يوم، مع قطع الأشجار وهدم البيوت وإحراق المساجد"^(٢)، لذلك أصبحت مدينة حلب "خالية من سكانها وأنيستها، قد خربت وتعطلت من الأذان والصلوات، وأصبحت خراباً يباباً، مظلمة بالحريق، موحشة قفراً، لا يأويها إلا البوم والرخم"^(٣).

ولما فرغ تيمورلنك من حلب توجه إلى دمشق في نفس العام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، والتقى فيها بعساكر الملك الناصر فرج بن برقوق^(٤)، عند إحدى قرى دمشق يقال لها قطناء^(٥)، وصمد المماليك في وجه تيمورلنك وجنوده، فطلب الصلح مراراً فرفض المماليك ذلك، إلا أن الاختلاف سرعان ما دب إلى صفوف المماليك، فانسحب عدد منهم إلى مصر تاركين الباقين ليلاقوا مصيرهم "وتركوا أمر تيمور كأن لم يكن"^(٦)، وقد أدى ذلك إلى جعل دمشق "أكلة لتيمور، وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها"^(٧).

فبعد أن استوفى أمراء تيمور ما يريدون من أهل دمشق، سلموها لأتباعهم، فدخلوها "ومعهم السيوف مسلولة مشهورة، وهم مشاة فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها"^(٨).

ب - الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على المكتبات والكتب:

أما بالنسبة للعلوم المختلفة فقد تعرضت للحرق والتدمير، فمدينة مرو كانت مشهورة بكثرة المكتبات الزاخرة بالكتب، وكثرة المدارس والعلماء والكتّاب والأدباء^(٩)، وبغداد "أحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون، والتي ما كانت في الدنيا"^(١٠)، كما قتل آلاف من العلماء والشعراء، ومن نجا فر منها إلى الشام

- ١ - ابن تغري بردي:المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٣- ٢٢٤، المقرئ: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٣٣، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٢٢٠- ٢٢١، ابن الصيرفي، نور الدين علي بن داود الجوهري:نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبش، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٧٠م، ج٢، ص ٧٥- ٧٦.
- ٢ - النجوم الزاهرة، ج١٢، ٢٢٤- ٢٢٥.
- ٣ - المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٢٥.
- ٤ - ولد سنة ٧٩١هـ، وقتل سنة ٨١٥هـ، انظر: (بن العماد الحنبلي:شذرات الذهب، ج٧، ص١٠٨).
- ٥ - ياقوت: معجم، ج٤، ص ٣٧٤.
- ٦ - ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٢٢٥.
- ٧ - ابن تغري بردي:المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٣٧.
- ٨ - ابن تغري بردي:المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٤٤- ٢٤٥، المقرئ: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥١.
- ٩ - العريضي: المغول، ص ١٣١، الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٣٠.
- ١٠ - ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٥١.

ومصر وغيرهما من البقاع، وأحرقت المكتبات، وخربت المدارس والمعاهد، وقضي على الآثار الإسلامية التي نَعِبَ الفنانون المسلمون في إبداعها، كل هذا التراث المجيد، أصبح في التراب أثراً بعد عين.^(١) قام تيمورلنك ومن معه من المغول بإحراق دمشق بعد أن نهبوها وقتلوا من فيها ثم أشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد، حتى صار لهيب النار يكاد يرتفع إلى السماء، وعمت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها^(٢)، حتى "احترقت كلها، وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق، وزالت أبوابه، وتفتطر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة، وذهب مساجد دمشق ودورها وحماماتها، وصارت أطلالا بالية، ورسوماً خالية."^(٣)

ج - الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على السكان:

استخدم المغول كل أنواع الدمار والخراب في البلدان التي دخلوها (سواء للبشر والحجر والشجر)، ففي كل مكان دخلوه كان السكان يساقون بأعداد ضخمة لمساعدتهم في حصار المدن الحصينة، وعند مهاجمة الاستحكامات فيها اعتاد المغول على أن يسوقوا أمامهم أولئك التعساء، حتى يدرؤوا عنهم ما ينهمر من السهام، ومن أجل يمهّدوا الطريق للجيش الذي يسير في إثرهم، وفي بعض الأحوال يقومون بتوزيع الأعلام المغولية عليهم، حتى يظن العدو أن عدد الجيش المغولي كبيراً^(٤)، وبذلك يكون المغول قد استخدموا السكان كدروع بشرية. ارتكب المغول في بخارى من الفظائع في النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك، واختار الموت...^(٥)، ومن بقي حياً أُجبر على الرحيل وأن لا يحتفظ من أملاكه إلا ما يرتديه من ملابس، ومن خالف هذه الأوامر تعرض للقتل^(٦)، أما في سمرقند فقد اقتضوا الأبيكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا من لم يصلح للسبي^(٧). وبلغ الأسرى دون القتلى في بلخ والطالقان سبعين ألفاً^(٨)، دون القتلى، أما في مدينة نسا التي استطاع حاميتها قتل أحد قواد (طغاجار نويان)، زوج ابنة جنكيز خان، فلما سقطت المدينة انتقم المغول منها شر انتقام حيث ساقوا السكان "إلى فضاء وراء البساتين... كأنهم قطعان الضأنية تسوقها الرعاة.. إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء

١ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ٢١٨.

٢ - ابن تقي بري: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٤٥، المقرئ: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٥١، ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٠ - ٩١.

٣ - ابن تقي بري: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٤٥٢٤٦، المقرئ: المصدر السابق، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٥١، ابن الصيرفي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩١ - ٩٢.

٤ - الباز العريني: المغول، ص ١٢٢، ١٢٣.

٥ - ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

٦ - الباز العريني: المغول، ص ١٢٣.

٧ - ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٣٦٨.

٨ - الباز العريني: المغول، ص ١٣٠.

الواسع بالصغار والنساء، والضجيج يشق جلباب السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا الناس بأن يُكفّوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلاناً، .ثم جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدا وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء، فمن دماء مسفوكة، وستور منهوكة، وصغار على ثدي أمهاتها المقتولة متروكة، وكان عدة من قتل سبعين ألفاً^(١)، كما بلغ عدد القتلى في مرو سبعمائة ألف قتيل.^(٢)

ولما قتل طغاجار نويان القائد المغولي أثناء محاصرته لمدينة نيسابور، قرر المغول الانتقام له من أهلها فتحلوا عن كل الصفات الإنسانية عندما سلمت لهم، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يتركوا في المدينة أثراً من آثار الحياة، ثم عملوا من رؤوس القتلى أهرامات عالية للرجال والنساء والأطفال، وذلك حتى يضمنوا أن لا ينجوا أحد من سيوفهم بادعائه الموت بين القتلى^(٣)، ولما ثارت مدينة هراة على حاكمها المغولي، فتقدم المغول وأبادوا السكان عن آخرهم مرة واحدة، وخرّبوا المدينة تخريباً كاملاً^(٤)، حيث قدر البعض بأن عدد قتلى هذه المدينة وصل إلى مليون ونصف من القتلى^(٥)، رغم أن هذا الرقم قد يكون مبالغ فيه. وعندما وصل المغول إلى مراغة قتلوا من أهلها ما تجاوز الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم^(٦)، وفي الكرج لم يسلم منهم إلا الشريد، حيث بلغ القتلى ثلاثين ألفاً^(٧).

أما في بغداد فقد قتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال، فلم يبق من أهل البلد، ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل^(٨)، وذلك بعد أن خدعوا الخليفة بأن ينادي في الناس بإلقاء السلاح مقابل أن يعطوهم الأمان، فلما فعل ذلك طلبوا منهم الخروج، ثم قتلوهم جميعاً^(٩)، وقتلوا عشرات الآلاف من الناس، يقول ابن كثير: "وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نسمة"^(١٠)، كما أن المغول سبوا النساء والأطفال، وجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة

١ - النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١١٤ - ١١٥.

٢ - العربي: المغول، ص ١٣١.

٣ - براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص ٥٦٠.

٤ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٣٤.

٥ - الباز العربي: المغول، ص ١٣٥.

٦ - العربي: المرجع السابق، ص ١٣٦.

٧ - العربي: المرجع السابق، ص ١٣٦.

٨ - ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٣٠.

٩ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ٢٦٤.

١٠ - ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٠٢.

أهل البلد أذلة^(١)، بل أن المغول وصلوا في الاستهتار بقتل الأنفس حد الفطاعة، حيث قام أحد المغول بقتل أربعين طفلاً في بغداد شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل^(٢).

وفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م دخل تيمورلنك حلب وفعل بها وجنده الأفاعيل، فبعد القتل والتكيل حتى للأسرى "صار الأبيكار تفتض من غير تستر، والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام... ثم بذلوا السيف في عامة حلب وأجنادها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى.. واستمر هذا من ضحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء، رابع عشر ربيع الأول"^(٣)، من نفس العام، وجافت حلب وظواهرها من القتلى، بحيث صارت الأرض منهم فراشا، لا يجد الشخص الشخص مكاناً يمشي عليه، إلا وتحت رجله رمة قتيل، وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منائر عدة مرتفعة من الأرض نحو عشرة أذرع، في دُور عشرين ذراعاً، حسب ما فيها من رؤوس بني آدم، فكان زيادة على عشرين ألف رأس، ولما بنيت جعلت الوجوه بارزة يراها من يمر بها"^(٤)، ثم "سبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال"^(٥).

د - الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على القيم والأخلاق:

كان المغول في بداية أمرهم شعب متخلف بدائي الحضارة لذلك كان جنكيز خان يمنع جنده من الوضوء والغتسال، كما يمنع طريقة المسلمين في ذبح الحيوان، لما في ذلك من مخالفة للعادات والتقاليد المغولية، لذلك كانوا ينفرون من الحياة المستقرة، ويميلون إلى تدمير حضارة المدن، فيقضوا على الأراضي الزراعية، ويحولوها إلى براري تتناسب مع طبيعة حياتهم في أول الأمر^(٦)، لذلك قضى على الحضارة والمدنية التي اشتهرت بها بخارى، حيث كانت قد بلغت شأنًا كبيراً في ذلك لاشتغال سكانها بالعلوم والفنون المختلفة، فأصبحت أثراً بعد عين^(٧) بل أن جنكيز خان أمر بقتل كل من عجز عن المشي من أسرى بخارى^(٨)، كما أشعلوا النيران في سمرقند دون مبرر بعد أن استسلم لهم السكان، وجمعوا كل ما فيها من أموال وحيوانات، وأباحوا القتل العام في السكان، ولم يستثنوا إلا من كان ذو حرفة أو صنعة أو كان صالحاً لاستخدامه في الجيش المغولي^(٩)، إما كدروع بشرية،

١ - ابن كثير:المصدر السابق، ج١٣، ص٢١٨، ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٦.

٢ - الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٦٤، ٢٦٥.

٣ - ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٢٣-٢٢٤، المقرئ: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٢٣، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٢٠-٢٢١،

٢٢١، ابن الصيرفي:نزهة النفوس، ج٢، ص٧٥-٧٦.

٤ - ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٢٤-٢٢٥.

٥ - ابن تغري بردي:المصدر السابق، ج١٢، ص٢٤٤-٢٤٥، المقرئ: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥١.

٦ - العريني: المغول، ص١٣٩.

٧ - الصياد: المغول في التاريخ، ص١١٨.

٨ - العريني: المغول، ص١٢٤.

٩ - الصياد: المغول في التاريخ، ص١١٩، ١٢٠.

بشرية، أو لإيهام من سيهاجمونهم بكثرة عددهم، كما تجلت بريرية المغول وقلة حضارتهم فيما قاموا به ضد سكان مدينة جرجانية، عندما حطموا السد الذي يمنع ماء جيحون عن المدينة، فتهدمت الأبنية، وظل موضع المدينة زمناً طويلاً مغموراً بالماء، فمن نجا من القتل غرق في خضم الماء، أو هلك بين الأنقاض.^(١)

كما تعاملوا بطريقة لا أخلاقية مع حكام المسلمين الذين انخدعوا بوعودهم، فسلموا لهم، فقد ظلت السلطانة ترکان خاتون أم خوارزم شاه أسيرة لدى المغول من سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، حتى وفاتها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م^(٢)، ومع أن الخليفة العباسي المستعصم حاول استرضاء هولاءكو آخر الأمر لما اشتد الحصار على بغداد فأرسل له للمفاوضة البطريرك ماركيا ليكون، في محاولة للتوسط له عند دوقوز خاتون زوجة هولاءكو التي كانت على الديانة المسيحية^(٣)، إلا أن الخليفة قتل شرقتة^(٤)، لم تكن تتم عن أي جانب حضاري لدى المغول.

وعندما تقدم المغول إلى بلاد الشام سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، كان الرعب قد دب في عظام بعض الأمراء فقدموا الولاء والطاعة لهولاءكو، إلا أن البعض منهم دافع دفاع الأبطال عن بلده وكان مثالا للرجولة والشجاعة، مثل ما قام به الملك الكامل (محمد بن الملك المظفر بن العادل أبي بكر بن أيوب)، أمير ميفارقين، حيث ظل يقاوم الحصار طويلاً، ولما سقطت المدينة وتم القبض عليه من قبل المغول قتلوه بشكل مفرز، ولا أخلاقي، حيث كانوا يقطعون لحم جسده قطعاً، ثم يدفعونها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح، وطافوا به في البلاد السورية الكبيرة، يتقدم موكب رأسه مغنون وطبالون، ثم علق في دمشق^(٥)، ولما سيطر المغول على الموصل سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، واستطاعوا القبض على الملك الصالح، تفننوا في قتله بطريقة بشعة أيضاً، فقد وضعوه حياً في دهن ولباد، وألقوه في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان بعد أسبوع، فشرعت الديدان تأكل جسده حتى مات على تلك الصورة البشعة بعد شهر، أما ابنه الذي لم يبلغ من العمر ثلاث سنوات فقد شقوه نصفين على ساحل نهر دجلة^(٦).

ألزم تيمورلنك أهل دمشق بدفع ما تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال بعد أن غادرت المعركة إلى مصر، فلما فرغ من ذلك فرق حارات دمشق على أمرائه وقسم البلد بينهم، فقدم كل أمير يطالب كل حارة بما يشاء من الأموال، ولما لم يقدرُوا على طلباتهم استخدموا معهم كل وسائل التعذيب من الضرب والعصر والإحراق

١ - العريني: المغول، ص ١٢٩.

٢ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٢٤، ١٢٥.

٣ - الصياد: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

٤ - عن طريقة قتل الخليفة المستعصم انظر: صبري عبد اللطيف سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٣٢، ٢٣٤، D Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tehinguiuz Khan Jusqu a Timour Bey ou Tames I-IV (Amsterdam 1852). III, P.242.

٥ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ٢٩٣.

٦ - الصياد: المرجع السابق، ص ٣٢٢.

بالنار، والتعليق منكوسا، وغم الأنف بخرقه فيها تراب ناعم وكلما تنفس من عُدْبَ بذلك دخل التراب إلى أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، ثم قاموا بأخذ النساء والبنات والأولاد، وقسموا على أصحاب الأمراء وحاشيتهم، فرأى أهل دمشق من العذاب ما لم يسمع بمثله^(١)

هـ - الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على الصناع وأرباب الحرف:

حرص المغول على استثناء من له حرفة أو صاحب صناعة من القتل الجماعي الذي كانوا يمارسونه ضد سكان المدن المختلفة، ثم يقومون بإرسال هؤلاء إلى منغوليا للاستفادة من خبراتهم المختلفة، وكان هذا الأمر من الأسباب التي أدت إلى تنوع احتكاك المغول بحضارات عدة من الشرق والغرب، أو أواسط آسيا، لتختلط هذه الحضارات مع بعضها ولتؤدي في النهاية إلى مزيج حضاري رائع، لكن لم يكن المغول يدركون ذلك، أو يسعون إليه، إنما كان جل هم في بداية الأمر، الاستفادة من أصحاب الحرف والصناعات في ميدان القتال ومسائل الحرب، لكن الذي يعيننا هنا ما صنعه المغول مع أصحاب الحرف والصناعات في المدن الإسلامية، فعندما دخلوا إلى بخارى قاموا بقتل جميع السكان، ما عدا الصناع فقد أرسلوهم إلى منغوليا^(٢)، كما قاموا بالأمر نفسه في مدينة بناكات، حيث قتلوا السكان وحملوا معهم أرباب الصنائع^(٣)، ولا يعلم بالتحديد كم كان عدد هؤلاء الصناع، لأن الروايات تتناقض فيما بينها ما بين عشرات الآلاف في بعض المدن، وما بين عدة مئات، فيذكر البعض أن الصناع الذين أخذهم المغول من مدينة جرجانية عاصمة خوارزم وصل إلى مائة ألف من الصناع وأرباب الحرف، ثم وجهوهم إلى المناطق الشرقية^(٤)، ولعل في ذلك نوع من المبالغة في الأرقام لكنها في النهاية تدل على حرص المغول على الاستفادة ممن كان له حرفة أو صنعة.

استمر المغول في استخدام هذه السياسة مع الصناع، ففي سمرقند لم ينج من القتل سوى أصحاب الحرف، حيث أرسلوا عدداً كبيراً من العمال والصناع إلى منغوليا^(٥)، وفي مرو لم ينج من القتل سوى ٤٠٠ أربعمئة من الصناع وأرباب الحرف^(٦)، ورغم ما تعرض له السكان في هذه المناطق من الإبادة، فقد كان لنقل هؤلاء الصناع وأرباب الحرف إلى بلاد الشرق على يد المغول دور في نشر الإسلام في تلك المناطق، إلى جانب سبب آخر تمثل في تفوق

١ - انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٤٤ - ٢٤٥، المقرئ: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥.

٢ - العريضي: المغول، ص١٢٤.

٣ - العريضي: المرجع السابق، ص١٢٥.

٤ - العريضي: المرجع السابق، ص١٢٩.

٥ - الصياد: المغول في التاريخ، ص١٢٠.

٦ - العريضي: المغول، ص١٣٢، الصياد: المرجع السابق، ص١٣٠.

المسلمين في الجانب التجاري في شرق آسيا، مما أدى إلى وصول الإسلام إلى البلدان التي كان ينشر فيها البوذيون ديانتهم.^(١)

و - الآثار الحضارية السلبية للغزو المغولي على التجارة والاقتصاد:

تعرضت المدن الإسلامية التي دخلها المغول لأضرار تجارية واقتصادية بالغة، فعندما دخلوا بخارى أمروا السكان بالخروج من المدينة وليس معهم إلا ملابسههم، ثم دخلها المغول ونهبوا الدور والمتاجر وكل ما فيها، وقتلوا من وجدوه فيها^(٢)، وفي مرو أخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذبوهم في طلب الأموال، وربما مات أحدهم من شدة الضرب^(٣)، ومن أجل المال قاموا بنهب قبر السلطان سنجر السلجوقي ظناً منهم أنهم سيجدون ذهباً وفضة^(٤)، ومن أجل سياسة جمع المال التي كان من أجلها يقوم المغول باستخدام كل أنواع التعذيب للأهالي، وفرضوا عليهم الضرائب النوعية الباهظة، لهذا السبب ثار أهل مدينة هراة على حكم المغول.^(٥)

لم تكن طبقة التجار وأرباب الأموال وحدها من يقوم المغول باستغلالها مالياً، بل كانوا يجمعون أموالاً طائلة كذلك من حكام البلدان الإسلامية والذين امتازوا بجمع أموال طائلة في هذه الفترة، ولذلك لما دخل المغول بغداد وسيطروا عليها توجه هولاءكو إلى قصر الخلافة ليجد فيه هو وقادة جنده العدد الكبير من المجوهرات والحلي والنفائس والمرصعات، والذهب وغيره^(٦)، ولما غادر هولاءكو بغداد حمل ما سرقه من بغداد والروم السلاجقة، وجورجيا، وأرمينية، وكردستان^(٧)، والكرج والأرمن ومن قلاع الإسماعيلية، وأرسله إلى أذربيجان، حيث شيد له قصر حصين في إحدى جزر بحيرة أورمية.^(٨)

وعندما تقدم تيمورلنك إلى دمشق سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م وجد أهلها أنهم سيواجهونه بمفردهم بعد أن تركهم المماليك متوجهين إلى مصر، وكان السبب في رجوع سلطان المماليك إلى مصر وترك القتال ضد المغول ما وصل إليه من قيام مؤامرة ضده هناك لقلب نظام الحكم^(٩)، عندها قام أهل دمشق فـ "غلقوا أبواب دمشق، وركبوا أسوار البلد، ونادوا بالجهاد، فتهياً أهل دمشق للقتال، وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله الدمشقيون من أعلى

١ - Huzayyin, S. A., Arabia and the Far East, Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times. (Cairo 1942).PP.264-265.

٢ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ١١٧.

٣ - العريني: المغول، ص ١٣١.

٤ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٣١.

٥ - Howorth, History of the Mongols, Vol.I. P.133.

٦ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ٢٦٥.

٧ - Rashid-Eidin, Histoire des Mongols de la Perse. Edit. Par M. Quatremere. (Paris 1833).tom.i. P.317.

٨ - الصياد: المرجع السابق، ص ٢٧٨، Rashid, OP.Cit.

٩ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٣٥، ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ١٢٠١.

السور أشد قتال، وردوهم عن السور والخندق"^(١)، ولما صعب على تيمورلنك دخول دمشق لجأ إلى الحيلة والمخادعة والمخادعة لأهل دمشق، فأعلن أنه يريد الصلح، وطلب منهم إرسال رجل منهم ليحادثه^(٢) وبعد المحادثات وافق تيمور على ترك دمشق مقابل دفع ما أوجبه عليهم، "وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحا، يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف، تسعة"^(٣)، وقد بذل أهل دمشق كل الجهود من أجل توفير المبلغ الذي حدده تيمور وقدره ألف ألف دينار^(٤)، ولكن تيمور استقل هذا المبلغ وطلب عشرة آلاف ألف، وكان من ضمن الوفد الدمشقي الذي قابل تيمور المؤرخ ابن خلدون^(٥)، ونتيجة لذلك نزل بالناس بلاء عظيم، "نزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم، وعوقب كثير منهم بالضرب، ففلت الأسعار، وعز وجود الأقوات، وبلغ المد القمح إلى أربعين درهما فضة، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق، فلم تقم بها جمعة إلا مرتين"^(٦).

اتبع تيمور مع أهل دمشق أسلوب التعجيز ليذيقهم ألوان العذاب، فقد اعتبر المال الذي جمعه له للمرة الثانية لا يساوي ما يطلبه وقال: "هذا المال بحسابنا إنما هو يسوي ثلاثة آلاف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار"^(٧).

خامساً: العوامل التي ساعدت على التأثير حضارياً في المغول:

١ - الحضارة البدائية للمغول: لم يكن للمغول الرُّحْلُ أي حضارة تذكر، ولذلك فقد كانوا يعيشون على أكل الحيوانات الكريهة الميتة، ويشربون حليب الأفراس^(٨)، ولذلك فإن اعتبرنا أن لهم حضارة في هذه المرحلة المبكرة فإنها ستكون حضارة بدائية قبلية^(٩)، لكن عندما خرجوا من مسقط رأسهم واجتاحوا بلدان لها حضارة عريقة اعتمدوا على حضارة وأهل هذه البلدان، واستطاعوا إخراج حضارة تقترب بالحكم السياسي للمغول، فكانت حضارتهم عبارة عن مزيج من الحضارات تأثروا وأثروا بها وحملوها معهم، ولم يكن لهم من الحنكة السياسية والإدارية في إدارة الأراضي التي اجتاحوها، ففي عهد زعيمهم جنكيز خان اعتمدوا على الآيغوريين

١ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٢، ١٢، ٢٣٨، المقرئزي: ج٣، ق٣، ص١٠٤٦.

٢ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٢، ١٢، ص٢٣٨.

٣ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٢، ٢٣٩، ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٢٠٤.

٤ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٢، ١٢، ص٢٤٠، ابن خلدون: المصدر السابق، ج٧، ص١٢٠٢.

٥ - عن ذلك انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج٧، ص١٢٠٤.

٦ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ٢٤٢، المقرئزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٤٧-١٠٤٨.

٧ - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج١٢، ص٢٤٣.

٨ - ابن العبري: تاريخ الزمن، ص٢٣٥.

٩ - علي السيد محمود: الهجرات المغولية إلى مصر وآثارها الثقافية والاجتماعية في العصر المملوكي، مجلة المؤرخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٥، يوليو ١٩٩٥م، ص٩٦.

والفرس والصينيين في النظام الإداري، وقد برز منه فئة من الكتبة الأيغوريين المعروفين باسم البخشيش bakhshish، وكانوا يدينون بالبوذية.^(١)

٢ - الحضارات التي تأثر بها المغول وحملوها معهم:

أ - الحضارة الصينية:

رغم أن البعض حدد تاريخ استيلاء المغول على الصين في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م^(٢)، لكن يبدو أن المغول قد دخلوا إلى الصين وبدعوا بالسيطرة عليها منذ استطاع قبلاي خان ٦٠٥ - ٦١٢هـ/١٢٠٨ - ١٢١٥م تأسيس أول دولة مغولية حاكمة في الصين، وهي أسرة يوان (يُوان)، وكان الصينيين أكثر تفوقاً من المغول في ميدان الحضارة، لهذا تأثر المغول بعادات الصينيين، واعتمدوا في الإدارة والبناء على العناصر الصينية، بل أن بعض ملوكهم اعتنق الديانة البوذية، بل أن البعض من خانات المغول وزعمائهم تعصب لهذه الديانة، وأقام لها عدد كبير من المعابد، في الكثير من المدن، وحتى في بعض القرى^(٣)، ولن يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة بالعديد من المهندسين الصينيين، لأن المغول كانوا يستفيدون من طبقة الحرفيين والصناع في كل بلد يجتاحونه فلا يعملون على قتلهم وإبادتهم كبقية السكان، فيحافظون على حياتهم للاستفادة منهم، وبل ينقلونهم إلى أي مكان يريدون من مناطقهم الأصلية.^(٤) استفاد المغول من الصينيين في كل أمورهم، ففي مجال البناء استفادوا من العمال والصناع الصينيين، أما في مجال الحرب والقتال فقد استعملوا الأسلحة الصينية في حروبهم، واستعملوا الصينيين في صيانة آلات الحرب، وإصلاحها أو حتى في صناعتها، وصناعة كل ما يحتاجونه من أدوات، وأرسلوا العديد من الصناع وأرباب الحرف من مناطق أخرى كإيران إلى الصين^(٥)، وظلت الصين بعد أن سيطر عليها مغول الصين (يوان) هي المصدر الأول للورق الصيني الفاخر المستخدم للمكاتب، كذلك الخزف والحريز وأنواع الصباغات^(٦)، وبذلك أخذ المغول من

١ - استانلي لينبول: طبقات سلاطين الإسلام، ص ١٨٧، والبوذية: نسبة إلى بوذا، وتدعوا إلى العزوف عن المتع والملاذ الدنيوية والميل إلى الرهينة والتبتل، وينتشر أتباعها في الهند والصين واليابان، وقد اختلف الباحثون حول ما إذا كانت البوذية ديناً أو فلسفة، والسبب في إثارة هذا الاختلاف أن المتبع لحياة بوذا يلاحظ أنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله، وأن الأساس الذي حاول فيه حل مسألة الحياة، أساس فلسفي فالبوذية بناء على هذا الرأي فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين. انظر: (د مصطفى حلمي: الإسلام والأديان، دراسة مقارنة، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ٧٥، ٧٦.

٢ - عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م، ص ٢٩٩.

٣ - برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٥٨، ٦٦.

٤ - راجع ما صنع المغول في بلاد المسلمين من استغلال طبقة الصناع في كل من جرجانية عاصمة خوارزم حيث نقلوا ما يزيد على ألف من الصناع الصناع وأرباب الحرف إلى المناطق الشرقية بينما قتلوا بقية شرائح السكان. انظر: (الباز العريبي: المغول، ص ١٢٩، الصياد: المغول في التاريخ، ج ١، ص ١٢٧).

٥ - زكي محمد حسن: الصين وفنون الإسلام، ١٩٤١م، ص ٢٢.

٦ - Rogers (1.M) Evidence for Mamluk Mongol Relations, 1260-1360. Le Caire 1969, P.886. من أبحاث ندوة جامعة القاهرة الدولية، ١٩٦٩م.

الحضارة الصينية تأثيرات كثيرة أثرة فيهم، وعملت على تطوير الحضارة المغولية، وعندما تحركوا نحو المشرق الإسلامي أخذوها معهم من ضمن الحضارات الوافدة.

ب - الحضارة المسيحية:

احتك المغول بالعناصر المسيحية منذ البداية الأولى لظهورهم، سواء بسبب حسن معاملتهم للعناصر المسيحية، أو بسبب اتصالهم بمسيحي بيزنطة ودول أوروبا الغربية، أو بفعل العلاقات التبشيرية أو السياسية أو التجارية، وقد انتشرت المسيحية في الصين في العهد المغولي عن طريق المبشرين المسيحيين، مما جعل بعض الزعماء المغوليين متعاطفين مع المسيحيين أو متزوجين مسيحيات، فقد كان لهولاكو زوجة مسيحية، كما كانت أمه مسيحية على المذهب النسطوري^(١)، كما كانت علاقته حسنة مع البابا اسكندر الرابع الذي أرسل إليه سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م يشجعه على اعتناق المسيحية، وكان عدد من أتباع هولاكو من المسيحيين، ومنهم القائد الذي تركه على سوريا^(٢).

سعى الصليبيين إلى استخدام المغول أداة يضربون بها ما كان للمسلمين من قوة في بلاد الشام ومصر، كانت تحول بينهم وبين تثبيت جذورهم في البلاد التي احتلوها، وقد ساعدهم في ذلك انتشار المسيحية في بلاد المغول، وقد قام سفراء صليبيون بزيارة بلاد المغول من أجل إقامة تحالف معهم ضد المسلمين^(٣)، غير أن هذا التحالف المغولي الصليبي لم يكن سوى في مجالات محددة، من أجل تضيق الخناق على المسلمين، لذلك وصف البعض حملة هولاكو على العراق والشام بأنها اتخذت "سمات الحرب الصليبية الأرمينية المغولية"^(٤)، ويظهر هذا التعاطف التعاطف المغولي المسيحي في تعاطف المغول مع نصارى البلاد الإسلامية التي احتلوها، فلم يتعرضوا لهم بأذى، وكانت بيوتهم في بغداد مأمناً التجأ إليه بعض المسلمين فنجوا من الهلاك^(٥)، وأعطى هولاكو بطريك النساطرة واحداً من قصور الخليفة، اتخذه مقراً وكنيسة، وأغدق عليه العطايا^(٦).

عندما احتل المغول بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وجد النصارى في دمشق عوناً من واليها المغولي الذي كان معظماً لدين النصارى، فاجتمع بأساقفتهم وقساوستهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم جولة وصولاً بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أماناً وفرمان

١ - جمال فوزي محمد: أوضاع غير المسلمين بإيران والعراق في عهد الإيلخان أرغون، (ندوة شرق العالم الإسلامي، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٣٢٠).

٢ - برتولد شبولر: العالم الإسلامي، ص ٤٧.

٣ - رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م، ج٣، ص ٥١٤- ٥١٥، ٥٢٦.

٤ - رنسيمن: المرجع السابق، ج٣، ص ٥٢٦.

٥ - ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٩.

٦ - رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٢٢.

منه، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح، دين المسيح، ويذمون دين الإسلام، وأهله، ومعهم أواني فيها خمر، لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، ومعهم قماقم ملئ بالخمر، يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق، أن يقوم لصليبيهم^(١)، ولما قَدَّمَ المسلمون شكواويهم للوالي المغولي من النصارى وما يلاقونه منهم من سوء المعاملة لم يلتفت لشكاويهم، بل تعاطف مع النصارى، بل أنهم "أهينوا وطردوا"، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم^(٢)، وقد صدَّقَ على المسلمين في بلاد الشام القول بأنهم أضحوا خلال الغزو المغولي "لأول مرة منذ القرن السابع يعتبرون أقلية مغلوبة على أمرها"^(٣)، وإن كانوا غالبية السكان بلا منازع.

اعتنق بعض زعماء المغول المسيحية، فابن هولكو المسمى أنفا (ابقا خان) كان مسيحيًا، واشتهر بميوله المسيحية، وتقريب المسيحيين منه، كما أقام علاقات ودية مع البابا وملوك أوروبا وصليبي الشام، وقد أرسل عدة رسائل إلى البابا وملوك العالم المسيحي يطلب منهم المساندة والعون في إرسال حملات على مصر^(٤)، ولا شك أن هذه العلاقة بين الطرفين قد أدت إلى التأثير والتأثر بينهما في جوانب المساعدات الأخرى، سواء كانت فنية أو حرف وصناعات، أو جوانب أخرى وإن كانت المصادر لم تشر إلى ذلك، ومع ما سبق فلم تنجح المسيحية في تحويل المغول إلى ديانتها وإن اعتنقها البعض منهم أو تعاطفوا معها، فقد ظل المغول على ديانتهم الوثنية، وكان تحولهم إلى الإسلام أكثر من أي دين سماوي آخر.

ج - تأثر المغول بالعناصر ذات الأصل الفارسي:

تأثر المغول بالعناصر ذات الأصل الفارسي رغم ما أحدثه المغول في هذه المناطق الشرقية من العالم الإسلامي (همدان، وطبرستان، وتركستان، خراسان...) من دمار وخراب كبيرين، فقد قَرَّبَ المغول العديد من العلماء والأدباء، واستفادوا منهم في تسيير دفة الحكم لهم في هذه المناطق، فقد ذاع صيت العديد من الشعراء في هذه المناطق من شرق العالم الإسلامي في عصر المغول مثل: سعدي الشيرازي، وجلال الدين الرومي، وفريد الدين العطار، وغيرهم، ولكن سندل على هذه النقطة بثلاثة علماء في العصر المغولي:

الأول: نصير الدين الطوسي الذي أصبح موضع ثقة المغول، وقربوه إليهم وكان من كبار المؤلفين في الفلسفة والتاريخ، وكافة العلوم الأخرى، كما فوض إليه المغول أمر الأوقاف فقام بضبطها، وأقام المرصد الكبير في مراغة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م^(٥)، وأنشأ به مكتبة تحوي أربعمائة ألف مجلد، وأقام المرصد منوياً على لقب حكام

١ - ابن كثير: البداية، ج١٣، ص١٣٩، ص٢١٩، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٣٦٢-٣٦٤.

٢ - اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٣٦٣.

٣ - رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥١٥.

٤ - علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م، ص١٤١.

٥ - عصام الدين الفقي: الدول المستقلة، ص٣١٩.

المغول وسماه "الزيغ الإيلخاني"^(١)، وأمد هذا المرصد بجهازين الأول لقياس زاوية الارتفاع والآخر لقياس زاوية الميل.^(٢)

أما الشخصية الثانية التي كانت في شرق العالم الإسلامي ووزرت للمغول: رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي وزر لثلاثة سلاطين مغول هم: (غازان خان، وأولجايتو، وأبو سعيد)، والذي ألف "جامع التواريخ" وهو أكبر موسوعة تاريخية وألفه بالفارسية، واستعان بالتصوير في شرح الأحداث التاريخية^(٣)، أما الشخصية الثالثة: فهو علاء الدين بن اباقا، أخو أحمد أرغون بن اباقا، وكان متولياً لبغداد، وكتب تاريخاً باللغة الفارسية ذكر فيه تاريخ الدولة السلجوقية والخوارزمية والمغولية.^(٤)

د - تأثير المغول بالحضارة الإسلامية:

اضمحل العالم الإسلامي الشرقي اضمحللاً كبيراً بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد المغول، فانقلبت النشاط السياسي والثقافي إلى مصر التي أصبحت قبله أنظار المسلمين^(٥)، ومع أن المغول لم يعتنقوا الإسلام إلا بعد فترة ليست بالقصيرة من دخولهم للعالم الإسلامي واجتياحه، فإنهم بعد أن دخلوا في الإسلام اختلطوا بالمسلمين في الشرق، وأدى ذلك إلى خلق جيل جديد من العرب والمغول، فظهرت نتيجة لذلك طائفة من العلماء الذين يختلفون عن الطائفة التي عرفها العالم الإسلامي قبل تلك الغزوات^(٦)، وقد أدى هذا إلى تغيير في الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام، خاصة بعد أن تأثرت الحضارة الإسلامية بالحضارة والثقافة التي حملها المغول معهم من موطنهم الأصلي والتي اقتبسوها عن الصينيين بعد غزوهم لبلادهم، فعلى سبيل المثال أضعف الغزو المغولي من المكانة الأدبية التي امتازت بها بلاد ما وراء النهر، فبعد أن كان الأهالي في نيسابور ومرو يتنافسون في ميادين الأدب ويتبارون في الشعر والنحو والطب وغيره، نرى أن الغزو المغولي قد وضع حداً للحياة العقلية في هذه البلاد بوجه خاص، وفي أواسط آسيا بوجه عام، لأن المغول قتلوا أهل البلاد الأصليين الذين كانوا نواة الحضارة الإسلامية ثم تركوا البلاد في يد شرذمة من الأتراك لا يعرفون طعماً لحضارة^(٧)، كما أن اللغة العربية ضعفت كثيراً بفعل الغزو المغولي خاصة في الفترة الأولى منه.

١ - فاريجرت، ا.تسمرمان. هـ: الموسوعة الفلكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٠.

٢ - فؤاد الصياد: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الثقافة، ١٩٩٧م، ص ٨٠.

٣ - الصياد: المرجع السابق، ص ٨٣.

٤ - ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٣٤٩.

(٥) - حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ١٣٠.

(٦) - Browne, A Literary History of Persia, (London, 1906), Vol.1. P.442.

(٧) - Vambery, History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present, (London, 1873), P.138.

على أن الغزو المغولي لم يكن كله غزماً على المسلمين، فقد تأثروا بالغزاة المغول سواءً في الجانب المادي أو الأدبي، خاصة ما حملته المغول معهم من نظم الحكم الصينية، والتي اقتبسها المغول وطبقوها في البلاد الإسلامية التي احتلوها^(١)، كما وصل للبلاد الإسلامية كثير من المترجمين والموظفين من رجال الشرق الأقصى الذين حملهم المغول معهم إلى البلاد الإسلامية التي غزوها^(٢)، ولا بد أن يكون لهؤلاء تأثير مباشر أو غير مباشر في الحضارة التي كانت في بلاد الإسلام، كلُّ بالمهنة والخبرة التي كان يحملها خاصة أنهم قد استقروا في هذه البلدان الجديدة، كما أن المغول بعد أن استقروا في بلاد المسلمين بدتوا يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم بعد ذلك انتقلوا تدريجياً للإسلام ودخلوا فيه، ثم شجعوا العلوم المختلفة في بلاد المسلمين.

كما كان تأثير المغول في الفن الإسلامي كبيراً، خاصة عن طريق الفن الصيني الذي حملوه معهم، ولأن المغول شعب بدائي بربري ضعيف الحضارة لم يحترم المدنية والحضارة عند دخوله للبلاد الإسلامية رغم ما كسبه من حضارة الصين، فظلت الحضارة البدائية متأصلة فيه، فقام بتخريب العمائر الإسلامية، وتحطيم التحف الأثرية التي لا تقدر بثمن، إلا أن المغول بعد أن استقروا في بلاد المسلمين تفهموا تدريجياً كنه الحضارة الإسلامية التي وجدوها هناك، فكان ذلك مدعاة لأن يعطوا الفنون والحضارة عنايتهم ورعايتهم.

ورغم ما أحرق المغول من مدن إسلامية إلا أنهم من بداية عهد جنكيز خان كفّلوا لأهل الملل حريتهم الدينية وعقائدهم وكانوا يكرمون زهاد كل طائفة دون تفریق^(٣)، وعلى الرغم من أن جنكيز خان ظل متمسكاً بديانته الشامانية^(٤)، فقد اختلط كثير من كبار قادته بالديانة الإسلامية، وكان المغول في بداية أمرهم يقلب عليهم الديانتين الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم في فتوحاتهم، فأسلم فريق كبير منهم، وأول من أسلم منهم هو بركة خان حفيد باتوخان زعيم القبيلة الذهبية في القرن التاسع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتبعه أحمد تكوداري الأيلخاني حفيد هولوكو في إيران حتى جاء محمود خان (غازان خان) ٦٤٩ - ٧٠٣هـ/ ١٢٥١ - ١٣٠٣م فكان لدخوله الإسلام أثر كبير في تحول القبائل المغولية للإسلام، وجعل الدين الإسلامي دين الدولة الرسمي، وأدخل على المجتمع المغولي تغيرات جديدة أكسبته الطابع الإسلامي^(٥).

سادساً: الآثار الحضارية الإيجابية للغزو المغولي على الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي:

أ - العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام بين المغول:

١ - Lamb, Genghis-Khan, The Emperor of All Men, (London, 1934), P.206.

٢ - د. زكي محمد حسن: الصين وفنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤١م، ص ١٦.

٣ - أرمينوس فامبري: تاريخ بخارى، ص ١٨٠.

٤ - تتمثل هذه الديانة في عبادة بعض الآلهة الشريرة التي كان يخشاها المغول، فيقدمون إليها القرابين والضحايا ابتغاء لشرها وأذاها، وفضلاً عن ذلك كان أتباع هذه الديانة يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطاناً كبيراً على حياتهم. انظر: Arnold, T.W. The Preaching of Islam, (London, 1916), P.220.

٥ - طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة، دار الجامعات، الإسكندرية، دت، ص ١٦٥.

قبل الحديث على الآثار الحضارية الإيجابية للمغول على الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي بعد أن أسلموا ودخلوا في الدين الإسلامي، واختلطوا بالمسلمين وأثروا وتأثروا بهم، سيتحدث البحث عن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام بين المغول ولو بصورة تدريجية زمنياً، لكنها آتت ثمارها في النهاية، وأهم هذه العوامل:

- الحضارة الإسلامية:

تعددت العوامل التي أدت إلى اعتناق المغول للإسلام، ومن أهم هذه العوامل تدني أحوال المغول الدينية والحضارية، وسمو الحضارة الإسلامية وتقدمها، فلما اجتاحتها العالم الإسلامي اندهشوا وأصيبوا بالذهول حين احتكوا بحضارة المسلمين في البلاد التي هاجموا، فجذبهم المدن الإسلامية بقصورها وحماماتها ومدارسها، وحدائقها، ومساجدها، كما رأوا أساليب معيشية راقية لم يألفوها من قبل، فقد اتسمت حياتهم بالشظف والمعاونة والهمجية والوحشية وسفك الدماء^(١)، فقد كانت حياتهم تقوم على الحل والترحال الدائم، مما جعلهم في أمية وجهل مستمر، فلما سيطروا على أغلب العالم الإسلامي شدتهم حياة الاستقرار والأمان، خاصة وأن ديانتهم الشامانية كانت بدائية وثنية، لا تقوم على نهج أخلاقي، فانتصر عليهم الإسلام باتباعه وأنصاره ودعاته من الفقهاء والعلماء الذين يملكون قوة الحجة، والإقناع، فلم يلبث المغول أن تحولوا إلى الإسلام، وتفاعلوا مع حضارته، فانتشر الإسلام بينهم وساعد على ذلك اختلاطهم بالفرس والترك المسلمين والتزوج منهم^(٢).

- التصوف:

انتشر التصوف في هذه المرحلة في كل البلاد التي سيطر عليها المغول، وكثرت الطرق الصوفية وتعددت أسماءها ما بين الطريقة القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، والطريقة الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م)، الذي نجح في نشر الإسلام بين تتران إيران^(٣)، والطريقة السهروردية نسبة إلى الشيخ عبد القادر السهروردي (ت ٥٦٣هـ/١١٦٧م)، والطريقة الكبراوية نسبة إلى الشيخ نجم الدين الكبر أحمد بن عمرو (ت ٦١٨هـ/١٢٢١م)، وغيرها من الطرق، ولعل من أشهرها في عهد المغول الطريقة المولوية، نسبة إلى الشيخ جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ/١٢١٣م)، والتي انتشرت في كثير من مدن آسيا الوسطى، واستطاعت أن تؤثر على المغول وأن تعمل على اعتناقهم للإسلام، حيث كان التصوف قد أثر في سكان هذه المناطق منذ إسلامهم^(٤)، وقد أدى انتشار التصوف في مناطق عدة من العالم الإسلامي في هذه المرحلة نتيجة لما

١ - الهمداني: جامع التواريخ، ج٢، ص٧، ٢٤، ٢٥، القلقشندي: صبح الأعشى، مصر، دت، ج٤، ص٣١١، ٣١٢.

٢ - رجب محمد عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٦٥، ٦٦.

٣ - ابن بطوطة: الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م صفحات ٢٠٠، ٢١٩، ٢٢٠.

٤ - الشيخ فريد الدين آيدن: الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، ص٣٥٦، كتاب منشور في موقع السلفيين الأتراك على رابط:

www.ikraislam.com، وانظر عن الطريقة المولوية: الزركلي، خير الدين دمشقي: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة

عشرة، مايو ٢٠٠٢م، ج٧، ص٣٠.

اعتبره البعض ملاذاً آمناً، ونوعاً من المقاومة السلبية ضد أعداء الإسلام، لهذا انتشرت الطرق الصوفية في كل مكان ومع انتشارها زادت عدد الزوايا والخوانق في كل مكان^(١)، وقد ساعد ذلك على التأثير على المغول فكان هذا عامل مساعد على انتشار الإسلام فيهم، فقدّموا الفقهاء في مجالسهم، وأحاطوا أنفسهم بقارئ للقرآن في بلاطهم، كما أغدقوا على الصوفية ومشايخها العطايا والهبات بدون حساب^(٢)، وإن كانت الهجمات المغولية التي اتسمت بالوحشية قد أدت إلى هجرة أعظم أقطاب التصوف الفارسي الذي كان مزدهراً في إيران عصر السلاجقة إلى الأناضول، حيث جعل المولوية مركزهم في قونية، وهاجرت جماعات أخرى إلى الهند^(٣).

- الزوجات المسلمات:

أدى سيطرة المغول على العالم الإسلامي واجتياحه إلى تحول عدد كبير من نساء المسلمين إلى أسيرات لدى المغول الذين قاموا بعد ذلك إما بالزواج منهن أو استخدامهن كسراري وحظيات، وكان ذلك بصفة عامة لدى سلاطين المغول كما كان لدى الجنود أيضاً، ومن أمثلة ذلك ما قام به هولانكو من أسر نساء الخليفة المستعصم بعد اجتياحه لبغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بعد قتله للخليفة حيث بلغن ما يقارب سبعمئة من النساء والسرايا، وألفاً من الخدم^(٤)، وقد كان تأثير هؤلاء النسوة كبيراً على المغول بدليل أن ابن هولانكو المسمى تكودار قد تزوج من مسلمات فكان ذلك سبباً لاعتناقه للإسلام^(٥)، وقد تزوج أمراء وقواد وجنود المغول بكثير من المسلمات التركيات والفارسيات والعربيات، فكان لهن تأثير مباشر في القضاء على بدائيتهم وتحضرهم، وأيضاً في التأثير فيهم وتحولهم للإسلام، وترك ديانتهم الوثنية، وقد كان المغول يكونون لزوجاتهم المسلمات كل الاحترام والتقدير، وهذه الزوجة المسلمة أطلق عليها اسم خاتون وكانت تعطى راتباً سنوياً كبيراً^(٦).

- تأثير سكان البلاد المفتوحة:

لقد تأثر المغول بالسكان المسلمين في ثلاث مناطق سيطر عليها المغول وأثروا وتأثروا بها، حيث كان السكان في هذه المناطق أكثر تحضراً وثقافة وفكراً وسلوكاً من المغول، سواء كانوا عربياً أو تركياً أو فارسياً، وأهم هذه المناطق الإسلامية ثلاثة هي:

١ - يلحظ ذلك من خلال تتبع رحلة ابن بطوطة التي لا يخلو مكان ينزله من زاوية وشيخ صالح وعادات خارجة تنزل على هؤلاء الشيوخ من الصوفية ككرامة من الله، مع أن المسلمين في تلك المرحلة كانوا في حاجة ماسة لروح المقاومة والجهاد الحق. انظر: رحلة ابن بطوطة، صفحات (٢٠، ٢١، ٤٢، ٤٤، ٥٤٠، ٥٤١).

٢ - محمد علي البار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، دار الشروق، جدة، ١٩٨٢م، ص ٣٩١.

٣ - إبراهيم الدسوقي شتا: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الثقافة، ١٩٧٧م، صفحات (٢٥٢، ٢٦٧، ٢٦٨).

٤ - الصياد: المغول في التاريخ، ص ٢٦٦.

٥ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٤٧٥.

٦ - أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ٦١.

المنطقة الأولى: في بلاد آسيا الوسطى والقفقاق، حيث يقطنها المسلمون الترك، وكان معظم الترك في هذه المناطق قد دخلوا في الإسلام قبل قدوم المغول واندمجوا في الحضارة الإسلامية، فتأثر مغول القفقاق وآسيا الوسطى بالترك واللغة التركية، فكان تأثيرهم عامل من عوامل تأثيرهم على المغول، حيث ستحل اللغة التركية محل اللغة المغولية بالتدرج لتصبح اللغة الرسمية للبلاد، وساعد على ذلك أن المسلمون في تلك المناطق يحيطون بالمغول من كل جانب سواء من خوارزم أو من سلاجقة الروم، أو من بلاد البلغار، حيث مسلمي وادي الفلجا الأوسط، فالسكان ترك مسلمون مما ساعد على إسلام المغول في هذه المناطق.

المنطقة الثانية: بلاد تركستان وطبرستان والري وغيرها من بلاد الإسلام الشرقية، حيث كانت فيها الحضارة الفارسية، والتي كان لها تأثيرها حتى على الترك خلال الدولة العباسية في عصرها الثاني حين حل الترك محل الفرس في الاستئثار والنفوذ في الدولة الإسلامية، فسحرت الحضارة الفارسية العرب والترك، ومن بعدهم المغول عند سيطرتهم على هذه المناطق، فأصبحت الفارسية هي اللغة الرسمية للبلاد المغولي في هذه المناطق، وهي اللغة الرسمية للتجار في كل أنحاء الدولة المغولية إلى جانب التركية، وساعد على نهضة اللغة الفارسية مجموعة من الشعراء منهم الشاعر الفردوسي الذي كان له دور كبير في ذلك في عهد سيطرة المغول ربما بما يوازي الدور والتأثير الذي قام به دانتي فيما بعد للإيطالية ولوتر للألمانية.^(١)

المنطقة الثالثة: البلاد العربية في العراق وبلاد الشام، حيث كان المسلمون العرب في هذه المناطق أصحاب موروث حضاري عظيم، فلما سيطر المغول على هذه المناطق ذهلوا لمعيشة السكان الراقية من حيث المأكل والمسكن والمشرب، ولما هم فيه من حياة استقرار ورفاهية، فتأثروا بالقصور والبساتين والحلي والملبوسات، وغيرها مما أثر في المغول وجعلهم يتأثرون بالسكان وطبيعة حياتهم^(٢)، وإن كانت عملية تحولهم للإسلام لن تتم على الرقعة العربية لأنهم سيستقرون في بلاد إيران وآسيا الوسطى وبلاد القفقاق فتتم عملية التأثير والتأثر هناك ليتم تحولهم بعد ذلك إلى الإسلام، لأن التأثير الحضاري لا يأتي خلال يوم وليلة.

من خلال ما سبق تأثرت اللغة المغولية بهذه اللغات الثلاث، ولم تستطع الصمود أمام اللغات التركية والفارسية والعربية، مما ساعد على اندماج المغول مع سكان هذه البلاد من المسلمين حضارياً، فتأثروا بهم وأثروا بهم سواء عن طريق الاحتكاك المباشر، أو عن طريق التصاهر معهم، أو عن طريق التعامل التجاري، فانصهر المغول في هذا المحيط.^(٣)

١ - Saunders, J.J.A History of the Mongol Conquests, London, 1971, P.32.

٢ - انظر: محمد ماهر حمادة: وثائق، ص ٦٥.

٣ - انظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج ١، م ٢، ص ٨٤.

- الموظفين المسلمين:

لقد كان معظم الوزراء والكتاب والموظفين لدى المغول من المسلمين، سواء في مناطق آسيا الوسطى أو المناطق الشرقية للعراق في تركستان وما جاورها، أو في العراق والشام، وهذه هي المناطق التي سيطر عليها المغول وكانت رقعة مسلمة، والسبب أن المغول لم يكن لديهم أي رصيد حضاري كبير فكانوا يعتمدون على أبناء المناطق الأصليين في إدارة بلادهم مع وضع جماعة من المغول ممن يحسن الرقابة عليهم بحيث يضمّنوا السيطرة على هذه المناطق وعلى عائداتها، وفي حالة ما شكوا بأحد من هؤلاء الموظفين فإنهم غالباً ما يستخدمون السيف مباشرة، رغم أنهم يعطونهم نوع من الحرية في اختيار الأسلوب الذي يرونه مناسباً في إدارة هذه المناطق، وهو ما استخدمه المغول حتى في بلاد الصين، فجنكيز خان اعتمد على الأيغور^(١) في إدارة بيت المال في الصين، وكان حجابهم وعمال داوونيه منهم^(٢)، كما كان أغلب مستشاريه من التجار المسلمين^(٣)، وهو ما طبق في المناطق الإسلامية أيضاً من اعتماد حكام المغول على الموظفين المسلمين في إدارة البلاد، وقد كان هؤلاء الموظفين من أصحاب الكفاءة العالية، مما أثر على المغول وساعد على تأثرهم بالإسلام وحضارته فكان من العوامل التي ساعدت على تحولهم إلى الإسلام، ومن أمثلة هؤلاء العلماء والموظفين: نصير الدين الطوسي الذي اتخذ هولاءكو وزيراً ومستشاراً له، وكان -كما سبق القول - من العلماء البارزين في شتى العلوم خاصة علم الفلسفة والفلك، كما كان لكتابات دور بارز في إحياء النهضة والحضارة الإسلامية بعد نكبتها في بغداد وإيران والشام^(٤)، كذلك المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني، ومن أبرز كتاباته في هذه المرحلة كتاب "تاريخ جهانشكاي" أي تاريخ فاتح العالم، والمقصود به جنكيز خان^(٥) أما عن بداية اعتناق المغول للإسلام وأثر ذلك فيهم، فإن أول من اعتنق الإسلام من المغول بركة خان، سلطان القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق^(٦)، بحيث أنه بعد إسلامه ناصب هولاءكو العدا وهدده وتوعده لغزوه بغداد وقتل خليفته، وتدميرها وتخريبها وقتل أهلها^(٧).

- ١ - الأيغور: من أرقى قبائل الترك حضارة ومواطنهم الأولى هي الاستبس الواسعة في جنوب سيبيريا ووسط آسيا. انظر: (ربيع حامد خليفة: فن التصوير عند الأتراك الأيغور، دار طيبة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٣.
- ٢ - ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٢٧.
- ٣ - بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م، ص١٢٥.
- ٤ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٥٠٠.
- ٥ - انظر: الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، ٢م، ص٣٢٨، أحمد محمود الساداتي: تاريخ جهانشكاي، مجلة تراث الإنسانية، عدد ٢، المجلد الرابع، مصر، ١٩٦٦م، ص١١٨-١٢٠.
- ٦ - أفراد القبيلة الذهبية كانوا يسكنون آسيا الوسطى، وكان لأتراك خوارزم وآسيا الوسطى دور في نشر الإسلام بينهم، وكان بركه بن جوجي ابن جنكيز خان هو خان القفجاق، وقد أسلم على يد تجار مسلمين، وقد توثقت العلاقة بين بركه خان وبين سلطان مصر الظاهر بيبرس، وتعاونوا في عدائهما المشترك لمغول إيران، وقد تم تبادل السفارات بينهما أكثر من مرة. انظر: (الصيد: المغول في التاريخ، ص٣١٨، هامش ٢).
- ٧ - انظر: الصيد: المرجع السابق، ص٣٢٢.

كما كان لإسلام أحمد تكودار -ابن هولوكو - أثر كبير على المسلمين في بلاد إيران، فقد أعلن حمايته للدين الإسلامي وتوثقت صلته بالعلماء المسلمين، وزاد من بناء المساجد، كما غير دستور المغول المعروف بإلياسا بالقرآن الكريم والسنة النبوية^(١)، ورغم كل الجهود التي بذلها لنشر الإسلام إلا أن الدين الإسلامي لم يعلن ديناً رسمياً للمغول في إيران والمشرق الإسلامي إلا في عهد غازاخان من سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، وقد تحمس المغول للإسلام وغيروا زيهم فلبسوا العمامة، وقام هذا السلطان المغولي بهدم أصنام بوذا، مما ساعد على اندماج المغول في المجتمع الإسلامي.^(٢)

ب - أبرز العلوم والفنون التي ظهرت في عهد المغول والتي أثرت وتأثرت بالحضارة الإسلامية: ظهور مراكز صناعية جديدة:

لقد اشتهرت العديد من المدن بوجود مراكز صناعية فيها قبل اجتياح المغول لها سواء في بلاد شرق العالم الإسلامي أو بلاد الترك، أو في بلاد العراق وبلاد الشام، ومن ذلك إنتاج الخزف في عصر السلاجقة، ولم تختلف في العصر المغولي إلا في اختلاف الكميات وبعض الأساليب التطبيقية والفنية الزخرفية، ومن هذه المدن: قاشان^(٣)، جرجان، نيسابور، سمرقند^(٤)، ساوة^(٥)، مشهد، دامغان.^(٦)

١ - عصام الدين الفقي: الدول الإسلامية المستقلة، ٢٠٥.

٢ - فؤاد عبد المعطي الصياد: المشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، قطر، ١٩٨٧م، ص ٢٠٠.

٣ - قاشان: بالشين المعجمة وآخره نون مدينة قرب أصفهان تذكر مع قم. (ياقوت: معجم، ج٤، ص ٢٩٦).

٤ - سمرقند: بفتح أوله وثانيه ويقال لها بالعربية سمران، بلد معروف مشهور، وراء النهر، قصبته الصفند. (ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٦).

٥ - ساوة: بفتح السين والواو، بعدها هاء ساكنة، مدينة حسنة بين الري وهمدان في وسط بينهما، ويقربها مدينة يقال لها آوه. (ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٩).

٦ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ٢٧٢، ٢٧٣، Geza (f.) Islamic Pottery, P. 120/ TARE Q RAJAB Museum, 1999, P.60. ودامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبه قومس، وهي مدينة كثرة الفواكه. (ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٣).

ومن أمثلة ذلك مدينة الري التي دمرها المغول سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وهي التي اشتهرت في عصر السلاجقة بإنتاجها الوفير من الخزف بأنواعه، ثم ظهرت مدن جديدة لصناعة الخزف في إيران، لقربها من العواصم التي اتخذها إيلخانات المغول لهم في إيران مثل سلطانية وتبريز^(١)، فاشتهرت تبريز كمركز هام في صناعة الخزف في عصر المغول خاصة منذ أن اتخذوا مراغة عاصمة لهم، وقد عثر فيها على أفران وقمائن لصناعة الخزف^(٢).

كما عثر في دامغان على عدد من البلاطات الخزفية التي تدل صناعتها على أنها تعود إلى العصر المغولي، وقد تميز هذا النوع من الخزف باستخدام عناصر آدمية وحيوانية ونباتية، مع أطر كتابية بالخطين النسخي والفارسي، تشير إلى النصوص الدينية من القرآن، أو أدبيات من شعر الحب الصوفي كقصص مجازية ورمزية تشير إلى الحب الإلهي^(٣).

ومن أشهر المراكز الصناعية التي ظهرت في العهد المغولي واشتهرت بصناعة الخزف مدينة سلطانباد التي تقع بين قم وهمدان^(٤)، كما تم العثور على نماذج من الخزف الصيني السيلادون والمرسوم تحت الطلاء وذو زخارف صينية صينية في مدينة كرمان، وهذا الأمر يزيد من قوة الاحتمال بأن تكون كرمان هي مركز صناعته، أو أن صناعته تمت في مراكز أخرى في إيران، على أيدي صناع صينيين وافدين، أو صناع إيرانيين تعلموا من الصينيين، ومن أمثلة ذلك: صحن من السيلادون، قوام زخرفته رسم ثلاث سمكات وسط إناء، وهو من التصميمات الفنية المأخوذة مباشرة من الصينيين^(٥).

كما انتشر التصوير في العصر المغولي بشكل كبير، وقد ظهر خلال هذه المرحلة استخدام الموضوعات الدينية الإسلامية بصورة كبيرة في التصوير، ويرجع ذلك لسيطرة المغول على شرق العالم الإسلامي وشهرتهم بالولع بالتصوير، وهو ما جاء متوافقاً مع اعتدال المذهب الشيعي في كراهية التصوير في الإسلام، وهو ما يعكس المعاملة الحسنة التي لقيها الشيعة من قبل المغول، وما يعكس اعتقاد المغول بارتباط التصوير بالحياة الروحية^(٦).

- استخدام الخزف والألوان في فن الرسم والتصوير والزخرفة:

عند قدوم المغول للعالم الإسلامي أثروا فيه وتأثروا بحضارته في كل الفنون والعلوم، فقد تم إنشاء العديد من المدارس التي برز فيها فن الرسم، لكن بصمات التأثير الصيني كانت واضحة فيها، خاصة في المناطق الشرقية

١ - Geza (f.) Islamic Pottery, P. 120/ TARE Q RAJAB Museum, 1999, P.60.

٢ - سعاد ماهر: كتاب الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص٣٥.

٣ - Porter (v.) Islamic tiles, British Museum, 1999, P.34-35.

٤ - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٣٤.

٥ - Geza (f.) Islamic Pottery. P.168.

٦ - منى محمد بدر: الرسوم الأدمية على الخزف الإيراني في العصرين الصفوي والقاجاري بين الموروث المحلي والتأثير والتأثير الصيني الوافد، (من ندوة التقاء الحضارات في عالم متغير)، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٤٨.

من العالم الإسلامي في إيران وما جاورها، فظهرت التأثيرات الصينية على الرسوم، خاصة زخارف جلود الكتب، وكان العنصر الأساسي فيها الحيوانات الخرافية الصينية^(١)، ورغم اعتناق المغول للإسلام إلا أن تأثير تقاليد الفن الصيني على المحظورات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ظهرت من خلال بعض الرسوم، ومن ذلك تصويرهم للرسول صلى الله عليه وسلم ركباً البراق وحوله الملائكة يتقدمهم سيدنا جبريل عليه السلام، كما يصوروا مقابلة الركب للأنبياء والرسل في السموات^(٢)، وهذا الأمر من المحظورات في العالم الإسلامي، التي لم يقدم عليه أحد لهذا السبب، وقد حلل البعض هذه الصور باعتبار أنها ترجع لرسامين صينيين أو لتأثير صيني بسبب ما يظهر من الرسوم للوجوه المستديرة والعيون الصغيرة المنحرفة^(٣).

- العمران الذي ظهر في العهد المغولي:

رغم ما أحدثه المغول من خراب أثناء تدميرهم للمدن ودك أسوارها، وإبادة كل أنواع الحياة فيها، إلا أنهم بعد أن خضعت لهم هذه البلاد ودانت لهم وقضى على كل أنواع المقاومة فيها، عادوا ليتقنوا في البناء، مستخدمين كل طاقات الصناعات والبنائين الذين حملوهم معهم من كل البلدان التي أخضعوها، فخرج البناء مزيجاً بين كل الحضارات سواء الصينية أو الخوارزمية أو السلجوقية أو الإيرانية والعربية، بل أنهم فرضوا على مهرة البنائين بناء عمائر خاصة بهم كما فعل تيمورلنك بعاصمته سمرقند^(٤)، كما أثر الفخامة في البناء حيث كان مولعاً بإيجاد كل جديد في البناء والعمران^(٥)، لذلك سرق أفكار العمارة من بلاد الشام، فعندما شاهد تيمورلنك في الشام قبة بصلية الشكل - لها طرف إلى أعلى يستدق حتى يصبح مديباً - قام بنقل هذه الفكرة إلى سمرقند، وأشاد العديد من هذه القباب هناك، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا، حتى كان مشهوراً في تاج محل، وأكبر مثال على ذلك ما قام به تيمورلنك من فن البناء في مسجد الملك الذي شيده لنفسه ويحوي بوابة ارتفاعها مائة قدم، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر، كما شيّد لأخته تشو شوك بيكا، ضريحاً لتدفن فيه أصبح تحفة العمارة في عصره، كما أمر ببناء مسجد لتخليد ذكرى زوجته المحبوبة إليه والتي تسمى بيبي خاتون، فأحضر الصناعات المهرة وأشرف على البناء بنفسه^(٦)، كما شيّدت جوهر شاد زوجة شاه رخ مسجداً أعجوبة بالجمال وطراز البناء في مشهد على الطريق بين طهران وسمرقند، وقد حمل هذا المسجد اسمها، وقد تميز بإحاطة المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه، وتؤدي أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسي، كسيت واجهة كل منها

١ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص ١٧٩، ١٨٠.

٢ - زكي حسن: المرجع السابق، ص ١٨٢.

٣ - زكي حسن: المرجع السابق، ص ١٨٢.

٤ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ١٠٢.

٥ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: د.عبد الحميد يونس و محمد أبو درة، دت، مجلد ١٣، ص ٦٧- ٦٨.

٦ - ول ديورانت: نفس المرجع والصفحة.

بآجر من الخزف المزخرف لا مثيل لها^(١)، وخلاصة الأمر أن العصر المغولي لم يكن له حضارة خاصة به في فن البناء حيث امتاز هذا العصر بمزج فنون مختلف الأمم التي خضعت لحكم المغول فيما شيدوه من مباني.^(٢)

- الثقافة والأدب:

عمل المغول على الرقي بالحياة الثقافية والشعر والنثر بعد إسلامهم، فأنشئوا المدارس المختلفة وساهموا في تنمية الحياة العقلية والفكرية، فتنافسوا في بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء ومنشآت الرعاية الاجتماعية وأجروا الأرزاق عليها^(٣)، ولعل أشهر هذه المدارس المدرسة التي أنشأها آخر السلاطين التيموريين السلطان حسين بايقرا، بحيث استدعى لبنائها المهندسين والرسامين من كل مكان، فأبدعوا في بنائها وزخرفتها، فأصبحت آية من آيات الفن المعماري^(٤)، كما أقام وزير حسين بقرا والمسمى عليشير نوائي مدرسة أخرى وسميت بالمدرسة الإخلاصية، وعين فيها مدرسين لتدريس الحديث، وبنوا في هذه المدرسة قبة سماها "دار الحفظه"، خصصها لتلاوة القرآن وحفظه، وألحق بها مسجد و خانقاه لإطعام المساكين^(٥)، وبفضل رعاية المغول ووزرائهم للعلم والعلماء قامت نهضة نهضة علمية وثقافية لا زال التاريخ يشهد على تقدمها.

- اللغة والترجمة:

كما برز العلماء في الثقافة والأدب في عصر المغول كذلك برز النحويون والفقهاء كذلك، فقد تناول العلماء كتب النحو العربي بالشرح والتلخيص مثل: ألفية ابن مالك^(٦)، كما اهتموا بكتب البلاغة والإنشاء مما أدى لبروز لبروز العديد من العلماء من خراسان وسمرقند وهرارة، ومن الترك والمغول^(٧)، كما نشطت حركة الترجمة في عصر المغول سواء من العربية إلى الفارسية والتركية، أو من التركية للفارسية أو العكس، ومن هذه الكتب التي ظهرت في هذه المرحلة كتاب (الجامع) لسيد بن محمد سيد حسن (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م)، وهو تلخيص لكتاب صحاح اللغة للجوهري الفارابي، ومن المعاجم الفارسية كتاب أداة الفضلاء، للقاضي خان بدر محمد الدهلوي،

١ - المرجع السابق، ص ٦٨ - ٦٩.

٢ - غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة إحياء دار الكتاب العربي، دت، ص ٥٢.

٣ - آرمينوس فامبري: تاريخ بخارى، ص ٢٥٦.

٤ - خليل الله خليلي: هرة تاريخها - آثارها - رجالها، بغداد، ١٩٧٤م، ص ٥٨.

٥ - شيرين عبد النعيم: الثقافة العربية الإسلامية في بلاد الفرس من بعد العصر العباسي وحتى بداية العصر الصفوي، مجلة معهد الدراسات العربية بعنوان: العلاقات العربية الإيرانية، ١٩٩٣م، ص ٣٢٨.

٦ - ألفت ابن مالك الجبائي الأندلسي، وهو كتاب في النحو والبلاغة والبيان، فتح بها باباً واسعاً في هذا الفن لمعاصريه ولمن بعده، فقد استفاد من جهود الأقدمين، وجمع من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين، وقد أكتب على دراستها العديد من الباحثين، سواء دراسة أو شرحاً.

٧ - من أمثال: حسين بن محمد شاه (ت ٨٨٦هـ / ١٤١٨م)، وأبو القاسم بن أبي بكر اللثي، وشمس الدين محمد بساطي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م). انظر: انظر: (سهير بيومي: هرة وشعراؤها في العصر التيموري، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ٢٠٠٢م، ص ١٨٥).

ألفه عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م، كما وضع رستم مولوي معجمه المسمى (وسيلة المقاصد إلى أحسن المراصد) لتعليم قواعد اللغة الفارسية.^(١)

الخاتمة:

انتشر الإسلام في بلاد شرق آسيا منذ وقت مبكر عن طريق التجارة، فقد وصل المسلمون إلى أقصى أقاليم آسيا الشرقية للتجارة مع أهلها، ونجحوا في تأسيس جاليات عربية إسلامية هناك، وفي العهد العباسي زاد عددهم، خاصة بعد أن تزوج هؤلاء المسلمون من نساء صينيات^(٢)، ورغم أن الإمبراطورية المغولية انقسمت فيما بعد إلى أربعة أقسام: أولها في الصين، وثانيها في وسط آسيا، وثالثها في بلاد القفجاق، ورابعها في فارس، فإن العلاقات التجارية بين هذه الأقسام ظلت قائمة وكل منها حريص على الحفاظ عليها.^(٣)

لذلك لما انتقل المسلمون سواء بنقل المغول لهم - إن كانوا من أصحاب الحرف والصناعات - أو بانتقالهم للتجارة إلى شرق آسيا وبلاد الشرق، نقلوا معهم كثيرا من المعلومات عن الحضارة الإسلامية إلى هناك، وبالمثل فعل المسيحيون الذين ذهبوا من أوروبا إلى تلك البلاد، كما أن المغول كانوا قد نقلوا معهم الكثير من الحرفيين والفنانين والصناع الصينيين عند تحركهم نحو المشرق الإسلامي، أو نحو أوروبا، مما أدى إلى حركة اتصال سياسي وتجاري وفني وصناعي بين الجانبين الشرقي والغربي، وأدى إلى اتصال الحضارات الصينية والإسلامية والأوروبية، ثم إلى تداخل وتمازج هذه الحضارات، لكن ذلك قد كان ثمنه باهظاً، حيث أن الحضارة لم تصل إلى هذه النتيجة إلا بعد أن حطم المغول حدود عشرات الدول التي كانت تحول بين هذا الاتصال، وفي البداية دمروا عشرات المدن بما فيها من فنون وقصور وآثار وغيرها، وقتلوا مئات الألوف من البشر، وهَجَرُوا آلاف الصناع والحرفيين، لكن في نهاية الأمر اتصلت هذه الحضارات ببعض، فلما زالت هذه الحواجز تمكن الرحالة الأوروبيون من أن يذهبوا إلى الشرق، ويصفوا ما يرونه من كنوز آسيا، بعد عودتهم إلى بلادهم.^(٤)

ولعل من آثار هذا التلاقي بين الحضارات بين الشرق والغرب أن عرف المغول ما كان خافياً عليهم من حضارات الغرب وعاداتهم وتقاليدهم، كما حاول الغربيون بكل الطرق التأثير على المغول وعلى عاداتهم وعقائدهم^(٥)، بمحاولة تحويلهم إلى المسيحية، كما كان للغزو المغولي دور غير مباشر في قيام النهضة الأوروبية عن طريق دفعهم عشيرة الأتراك إلى آسيا الوسطى، والتي انحدر منها الأتراك العثمانيون فيما بعد، والذين استطاعوا فتح

١ - سهير بيومي: المرجع السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.

٢ - Fitzgerald, China, A Short Cultral History, (London, 1935).PP.320.

٣ - Huzayyin, Arabia & The Far East, P.172.

٤ - Browne, A Literary History of Persis, Vol.II. P.442.

٥ - Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, (Leipzig, 1886). Tom.II. P.70.

القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، مما أدى إلى احتكاك الأوربيون بهم بشكل مباشر وإلى تطوير العقلية الأوروبية الجامدة التي سيطرة على أوروبا طيلة القرون الوسطى.^(١)

أدت حركة الاتصال الحضاري هذه بين الشرق والغرب ليس لاستفادة المغول والمسلمون والمسيحيون فحسب، بل استفاد الصينيون أيضاً بترحيل أو رحيل المسلمون والمسيحيون إلى بلادهم، وخاصة أنهم في المراحل الأولى من الغزو المغولي كانوا من أصحاب الحرف والصناعات، ثم لاحقاً من أصحاب التجارة، فحملوا معهم حضاراتهم، مما أدى إلى التأثير في العلوم المختلفة عند الصينيين، فمثلاً نجد أن المعلومات الصينية الجغرافية تأثرت كثيراً من جراء كثرة رحلاتهم البرية والبحرية في وسط آسيا وغربها، وزاروا جزر الهند الشرقية، وسيلان وغيرها.^(٢)

كما كان التأثير الفني كبيراً نتيجة هذا التواصل الحضاري بين الشرق والغرب، بين الفنون الإسلامية والفنون الصينية، حتى ظهرت العناصر الفنية الإسلامية والصينية جنباً إلى جنب في بعض الصور، ومنها بعض الموضوعات الزخرفية وخاصة رسم السحب الصينية، وبعض الحيوانات الخرافية التي كانت من أهم مميزات الفن الصيني^(٣)، بل أن بعض اللوحات يصعب التمييز فيها عن نوعية المصور، أهو من المسلمين الذين قلدوا الرسوم الصينية، أم هو من الصينيين الذين قلدوا الفنون الإسلامية.

المصادر والمراجع:

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي(ت٧٧٩هـ): الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن(ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة، مصر، د.ت.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم(ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، ١٩٦٦م.
- ابن أبي الحديد، أبو حامد عبد الحميد(ت٦٥٥هـ): شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله(ت٦٢٨هـ): معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، طبعة ١٩٩٠م، ج٦.

١ - Browne, A Literary History of Persis, (London, 1906). Vol.II. P.442.

٢ - Hirth & Rockhill, Chinese & Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911). PP.25-28.

٣ - زكي محمد حسن: التصوير وأعلام المصورين في الإسلام، مجلة المقتطف، عدد أكتوبر، ١٩٣٨م، ص٤.

- الدمشقي، عبد القادر محمد النعمي(ت٩٢٧هـ): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- الزركلي، خير الدين الدمشقي: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، مايو ٢٠٠٢م، ج٧.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٥٢م.
- السيوطي، جلال الدين(ت٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- ابن الصيرفي، نور الدين علي بن داود الجوهري(ت٩٠٠هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبش، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ابن العبري، أبو الفرج المظني(ت٦٨٥هـ): تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٥م.
- تاريخ الزمن، بيروت، ١٩٩١م.
- العليمي، مجير الدين الحنبلي(ت٩٢٨هـ): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نياته، مكتبة رنديس، عمان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ابن العماد الحنبلي(١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد(ت٧٣٢هـ): المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الحسينية، الطبعة الأولى، د.ت.
- ابن الغوطي، كمال الدين عبد الرزاق البغدادي(ت٧٢٣هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المكتبة العربية، بغداد، ١٣٥١هـ.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد(ت٨٢١هـ): صبح الأعشى، مصر، د.ت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر، د.ت.
- الكتبي، محمد بن شاكر(ت٧٦٤هـ): فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.
- محمد بن خليفة التميمي: مقالة التعطيل والجعد بن درهم، نشر أضواء السلف، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٧١م.
- النسوي، محمد بن أحمد(ت٦٣٩هـ): سيرة السلطان جلال الدين مكبرتي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م.
- النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- المهذاني، رشيد الدين فضل(ت٧١٦هـ): لله: جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت، وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

- ابن واصل، جمال الدين بن محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيبان، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٧٢م.
- ابن الوردي، عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ): تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدرائي، دار المعرفة، ١٩٧٠م.
- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى (٧٢٦هـ): ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٦١م.

المراجع:

- إبراهيم الدسوقي شتا: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الثقافة، ١٩٧٧م.
- إبراهيم العدوي: تاريخ العالم الإسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- جعفر حسين خصباك: العراق في عهد المغول الأيلخانيين، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، دار الفكر، ١٩٤٩م.
- حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٣٩م.
- خليل الله خليلي: هراة تاريخها - آثارها - رجالها، بغداد، ١٩٧٤م.
- ربيع حامد خليفة: فن التصوير عند الأتراك الأيغور، دار طيبة، القاهرة، ١٩٩٦م.
- رجب محمد عبد الحلیم: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦م.
- زكي محمد حسن: التصوير وأعلام المصورين في الإسلام، مجلة المقتطف، عدد أكتوبر، ١٩٣٨م.
- الصين وفنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤١م.
- فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٣٨م.
- ساهر رافع: تيمورلنك، دار مشارق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- سعاد ماهر: كتاب الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- الشيخ فريد الدين آيدن: الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، كتاب منشور في موقع السلفيين الأتراك على

رابط: www.ikraislam.com

- طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة، دار الجامعات، الإسكندرية، دت.
- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.
- علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م.
- عماد الدين خليل، ودفايز الربيع: الوسيط في الحضارة الإسلامية، دار الحامد الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- فؤاد عبد المعطي الصياد: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الثقافة، ١٩٩٧م.
- الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، قطر، ١٩٨٧م.
- المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.

- محمد علي البار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، دار الشروق، جدة، ١٩٨٣م.
- محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.
- مصطفى حلمي: الإسلام والأديان، دراسة مقارنة، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

الدوريات:

- أحمد محمود الساداتي: تاريخ جهانشكاي، مجلة تراث الإنسانية، عدد ٢، المجلد الرابع، مصر، ١٩٦٦م.
- جمال فوزي محمد: أوضاع غير المسلمين بإيران والعراق في عهد الإيلخان أرغون، (ندوة شرق العالم الإسلامي، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٨م).
- شيرين عبد النعيم: الثقافة العربية الإسلامية في بلاد الفرس من بعد العصر العباسي وحتى بداية العصر الصفوي، مجلة معهد الدراسات العربية بعنوان: العلاقات العربية الإيرانية، ١٩٩٣م.
- علي السيد محمود: الهجرات المغولية إلى مصر وآثارها الثقافية والاجتماعية في العصر المملوكي، مجلة المؤرخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٥، يوليو ١٩٩٥م.
- منى محمد بدر: الرسوم الأدمية على الخزف الإيراني في العصرين الصفوي والقاجاري بين الموروث المحلي والتأثير والتأثير الصيني الوافد، (من ندوة التقاء الحضارات في عالم متغير)، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م.

الرسائل العلمية:

- سهير بيومي: هراة وشعراؤها في العصر التيموري، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ٢٠٠٢م.
- صبري عبد اللطيف سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م.

المراجع الأجنبية المعربة:

- أرمينوس فامبري: تاريخ بخاري، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٧م.
- استانلي لينبول: طبقات سلاطين الإسلام، بيروت، ١٩٨٥م.
- بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م.
- براون، ادوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٥م.
- برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
- كليفورد. أ. بوزورت: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، عين للدراسات، ١٩٩٥م.
- رايس، تامارا تالبوت: السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفى الخوري وإبراهيم الدقوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م.

- رنسيما ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.
- غوستاف لويون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة إحياء دار الكتاب العربي، دت.
- فاريجرت. ا. تسمرمان. هـ.: الموسوعة الفلكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.
- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: د. عبد الحميد يونس و محمد أبو درة، دت، مجلد ١٣.

المراجع الأجنبية

- Arnold, T,W. The Preaching of Islam, (London, 1916).
- Barker, E, The Crusades. (London, 1925).
- Browne, A Literary History of Persia, (London, 1906).
- D Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tehinguiz Khan Jusqu a Timour Bey ou Tames I-IV (Amster-dam 1852).
- Fitzgeraid, China, A Short Cultral History, (London, 1935).
- Geza (f.) Islamic Pottery, P. 120/ TARE Q RAJAB Museum, 1999.
- Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, (Leipzig, 1886).
- Hirth & Rockhill, Chinese & Arab Trade in the Twelfth and Therteenth Centuries Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911).
- Howorth, History of the Mongols,(London,1876).
- Huzayyin, S. A., Arabia and the Far East, Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times. (Cairo 1942).
- Lamb, Genghis-Khan, The Emperor of All Men,(London, 1934).
- Porter (v.) Islamic tiles, British Museum, 1999.
- Rashid-Eidin, Histoire des Mongols de la Perse. Edit. Par M. Quatremere. (Paris 1833).
- Rogers (1.M) Evidence for Mamluk Mongol Relations, 1260-1360. Le Caire 1969. من أبحاث ندوة جامعة القاهرة الدولية، ١٩٦٩م.
- Saunders, J.J.A History of the Mongol Conquests, London, 1971.
- Sykes, Sir Percy, The Quest For Cathay, (London, 1936)
- Vambery, History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present, (London, 1873).